الطيران على جناح ذُبابة

كاظم أبو جويدة

الكتاب: الطيران على جناح ذبابة
مجموعة قصصية

المؤلف: كاظم أبو جويدة

رقم الإيداع: ٢٠٩١ / ٢٠٢٤
الترقيم الدولي: 978-977-493-610-4
الطبعة: الأولى / ٢٠٢٤

الناشر
شمس للنشر والإعلام
ت فاكس: ٠١٢٨٨٨٩٠٠٦٥ (٠٢)
www.shams-group.net
shams@shams-group.net

حقوق الطبع والنشر محفوظة
لا يُسمح بطبع أو نشر أو تصوير أو تسجيل
أي جزء من هَذا الكتاب بأي وسيلة كانت
إلا بعد الحصول على موافقة كتابية من الناشر

شمس
للنشر والإعلام

الطيران على جناح ذُبابة

مجموعة قصصية

كاظم أبو جويدة

إهـداء

إلى أُمي...

التي لا أتمثلها إلا بثوب حداد راقص في أُفق أيامي، وهي تتفقد كوابيس قلقي، ناشرة ضياء حبها في أقاصي عتمة المخفي من وجعي.

إلى الماجدية...

التي سكنتني طفولة لا تغادرني ظلال صخبها، وجنون أحلامها، والتي لا تتعدى عبور نهر المشرح سباحة من الضفة إلى الضفة.

كاظم أبو جويدة

قصص المجموعة

١. الطيران على جناح ذُبابة ١١
٢. اللوحة ٢١
٣. صرير الأبواب المُشرَعة ٣٣
٤. كُلثوم ٣٩
٥. للموت بقية ٥٣
٦. ضد مجهول ٦٥
٧. ثورة جمهورية ٨٧
٨. الشروگي ٩٩
٩. ساعة الصفر ١١١
١٠. الجريمة الكاملة ١٢٣
١١. ورق الكلينكس ١٣٩
١٢. جحيم البسطرمة ١٤٩

تقديم

في عوالم «كاظم أبو جويدة» السردية ثمة رؤيا إنسانية مسؤولة، من خلال استلهام الواقع بعمق دون تكرار أو تقليد لتجارب الآخرين... فآمال وآلام الذين خارج المشهد المألوف يستلهمها القاص بروح توَّاقة لمشاركتهم طموحاتهم النائية.

ومن المُبهرات للمتلقي - بغض النظر عن رؤيته - تلك اللغة السلسة الموشَّحة بعمق مفردات رافلة بمداعبات الذاكرة العميقة؛ بمعنى يؤجِّج القاص في ذاكرة القارئ كلمات يكاد الحكي اليومي قد نساها في زحام اللهاث خلف المتغيِّر.

والمتتبع لخارطة أبو جويدة الإبداعية بين مسرح وسرد يجد تلك الثيمات الباسقة المترادفة مع البحث عن حقائق مغيبة، بيد انها مؤشرة كهمٍّ مشترك لاصحاب الأفئدة النابضة بشعور خاص، قد يغفل عنه الراكضون خلف زوابع الوهم، إلا ان المبصرين لما بين السطور يحتفون له ومعه كاكتشاف ومشاركة للهم الجمعي.

كما أن القارئ لقصص كاظم أبو جويدة يكتشف صورًا متلاحقة لا يبخل بجعل المتلقي يرى تتابعًا دراميًا واضح المعالم، ولعمري انها متعة من النادر أن نجدها بين ثنايا السرد.

ضاري الغضبان

روائي وسيناريست عراقي

الطيران على جناح ذبابة

أعلن المذيع ذو الصوت الأجشِّ نهايةَ البثِّ التلفزيوني لقناة الشباب الحكومية بعد سهرة الخميس المعتادة والفيلم العربي «سعد اليتيم». حينها قفزتُ واقفًا وبسرعة البرق أطفأتُ التلفزيون دون انتظار عزف السلام الجمهوري وظهور شاشة النقاط الصغيرة باللونين الأبيض والأسود الدَّالة على انقطاع البثِّ التلفزيوني، فعلتُها بتوتر لم أعهده فيَّ بسبب نهاية الفيلم الحزينة والتي كانت واضحة التأثير حتى على المذيع الذي بدا منكسرًا مكلومًا.

عالَجْتُ الموقف بعدها وكبحتُ فرامل توتري بحديثٍ كان طرفاه نفسي وأنَّاي: (إن هي إلا سهرة تلفزيونية ليست أكثر من ذلك، وها قد انتهتْ فصولها عند السلام الجمهوري... وهذا أمر طبيعي عشناه على مدى سنين).

لم تُكتب لي الراحة ليلتها، وهذا ما درج عليه حظي العاثر في كثيرٍ من المناسبات، فقد قضيتُ بعدها سهرة أخرى ومن نوع خاص، كشف عن طبيعتها القاهرة بؤسُ حالي الذي أنا فيه. كانت سهرة تبعث على القلق، قضيتُ تفاصيلها مع ذبابة مستهترة!

نعم ذبابة مستهترة تخلَّت عن أخلاقها في مَكَبِّ نفاياتٍ قبل أنْ تتسلَّل خِلسةً إلى بيتي؛ أو بالأحرى إلى غرفتي المنفردة بعيدًا عن الناس عند مدخل المدينة الصحراوي.

مارَسَتْ تلك الذبابة حُريتها بالطيران راقصةً بعدوانية تثير التساؤلات وتستفز القلب كي يغلي ويغلي، وهي تحوم كنسرٍ نافقٍ فوقَ أنفي بتكرارٍ عجيب، مع طنينٍ مُزعج تَعمّدَتْ به استنزاف روحي.

أحسستُ حِيال ذلك بِذلَّةٍ خانقةٍ وأنا أتلقى صفعاتِ جناحيها البغيضين، مما دعاني ذلك لمهاجمتها بشراسة لم أعهدها في نفسي، لكنها كانت تتملص من بين يديَّ بأريحية الخُبثاء ولثلاث مرات... حاولتُ في كل عملية هجوم مباغتة أن أسحقها بكَفَيَّ الخشنتين، تحدوني رغبةٌ محمومةٌ في الإجرام منهيًا بذلك فصلاً مُهينًا من العذاب... لكنْ، ما الجدوى من رغبة القتل المحمومة تلك دون أدوات حقيقية تتواجد في جُعبتي تدعم رغبتي في الانتقام، فليس لي من ذلك الجهد سوى إثارة جلبة بتصفيق حاد يوحي بالجنون...

إحباطٌ كبيرٌ عِشتُه وأنا أتابع طيرانها وطنينها المُقزِّز ليعلن بعدها هذا الليل البهيم سخافة محاولاتي وهي تتحطم واحدة تلو الأخرى على صخرة الفشل.

في لُجَّةِ خوضي في مستنقعات الحيرة وشلل التفكير باستجداء علاجٍ للموقف، تذكرتُ ساعتَها كلام أمي وهي تحلِّل مشاكسات سابقة للذباب وطريقتها المثالية في مكافحته بطرق سلمية مقدمة ذلك بوصايا تلخصت بـ(أنَّ الذباب يفقد القدرة على الحياة عند انعدام الضوء).

ترَّحمتُ على أمي ونهضتُ بهمة الثائرين وعمدتُ إلى إطفاء مصباح الغرفة استجابًة لهذه الوصايا، فاصطبغتْ الغُرفة بظلامٍ دامسٍ «تخرج يدك لم تكد تراها» لكنها لم

تعدو أن تكون محاولة ساذجة مصيرها الفشل كسابقاتها.

ترَّحمتُ على أمي مرةً أخرى، فالطنين مازال يشجُّ رأسي بحصاه الموجعة محتفلاً بعزف منفرد على آلة تشبه أصواتها صوتَ صرير عجلات عربات الحمل الخشبية المتهالكة في شوارعنا المتآكلة.

ما الذي تريده مني هذه الذبابة اللعينة؟ لِمَ كل هذا الإصرار على هرس روحي بعجلات كراهيتها؟... ما هو الذنب الذي ارتكبتُه بحقها لتنتقم مني بهذه الطريقة المُذلة؟... ربما فَعَلَتْ ذلك انتقاما لسحقي ذويها بأعدادٍ هائلة في طفولتي؟ عندما كنت أكبس بيدَيّ الصغيرتين على جموعها المحتشدة قُرب القمامة وأُطعمها لكتاكيت دجاجتنا الهزيلة فتأكلها باستمتاعٍ ملحوظ.

واصلتْ ذبابة الشؤم طيرانها المنخفض، حتى أكاد أسمع سخريتها بطنين يستحيل إلى ضحكٍ مستفزٍ يعلو ويخفت بهارمونية تركلني بقسوة كما كانت تفعل أمي في أيام الطفولة عندما تقودني للحَمَّام ركلاً في كل ظهيرة جمعة لنفض ما علاني من الوسخ والأدران طيلة أسبوع قضيته في مداعبة الكرة في شارعنا الآسن.

ركعتُ أمامها واضعًا رأسي بين جناحيها وأنا أستحلفها بكل تلال القمامة المستطيلة في المدينة الآخذة بالتضخم:

– كُفي عن جنونك سيدتي... كُفي عن عقابك غير المُبرَّر هذا... ففي صباح غدٍ لابد أن أتواجد في عملي وبين زملائي... فإنْ تأخرتُ أو لم أحضر؛ سيفصلونني من العمل. أفهمتِ؟ سيفصلونني من العمل.

فردَّتْ عليّ بصفاقة أبناء الشوارع:

– لكنّك... ستربح اصطياد النجوم بالتأكيد!

– أحلم باصطيادكِ أيتها العاهرة.

لوَّثتُ الفضاء ببصاقٍ حانقٍ ثأرًا لهزيمتي النكراء في معركة غير متكافئة أمام كائن وضيع يروق له تعذيبي. ومُداراةً لخجلي هربتُ عند تخوم سريري، وتلَفَّحتُ ببطانيةٍ ثخينةٍ غطَّت كل جسدي ولم يطلُّ منها سوى عينين حذِرتين تتطلعان في العدم. تلوتُ آية الكرسي عدة مرات بلسانٍ مرتجِفٍ وقلبٍ يعوي رغبةً في الغرق بنوم يُنسيني دكتاتورية هذه الذبابة اللعينة. لكنّها أبَت إلا أن تُوغل بتعذيبي، فهي فنانة محترفة بطرق الطنين وكيفية إيصال مَداه حتى مستنقعات آذان روحي، مما زادني أرقًا وقلقًا.

– اللعنة على القمَّامين القذرين الذين أفسحوا لكِ المجال لتعتلي أرواحنا بطنينك المُسْتَفِز هذا.

سقط في يدي. لم أتوصل لحل يُرضي كرامتي. نفضتُ البطانية عن جسدي بلا مقدمات تُذكَر، وطوَّحتُ بها بعيدًا، ثم قفزتُ باتجاه باب الغرفة ففتحته بعنفٍ على مصراعيه في محاولة يائسة لطرد الذبابة خارجًا وإعادتها إلى مسكنها الأم عند تلال القمامة الشاهقة... استجاب الباب لرغبتي... تناولتُ أحد قمصاني واستخدمتُه بحركات تهويمية في الهواء كأداة لطردها. رُحت أدور في الغرفة كالمجنون، أهشُّ بقميصي يمينًا ويسارًا، وكأنني في حلقة دراويش صارخًا كمجنون يصارع جمعًا من الأشباح لا يرى صورهم.

– اخرجي أيتها الحشرة الجبانة، أيتها التافهة المختبئة خلف ضآلة حجمها

كرَّرتُ صراخي بأقسى العبارات السوقية، فاشتدَّ جنوني حتى أحسستُ بجدران الغرفة وما توسطها من أثاث؛ حتى المُهمَل منه؛ يدور معي راقصًا رقصة الدراويش، حتى أعياني الهشُّ والنشُّ فسقطتُ فوق سريري بلا حِراك معتقدًا أنّها ساعة الموت وحتمية نهايتي، لتصرخ بي تلك الذبابة:

– اِنهض، هي الحياة التي طالما هربتَ منها.

لحظاتُ صمتٍ حذِرة سيطرتْ على فضاء الغرفة دعتني للمكوث ساكنًا، ودَعِمْتُ هذا الصمت بقطع الأنفاس خوفًا من عودة الطنين الذي لم يعد حاضرًا كأنَّه لم يكن. ولمَّا تيقَّنتُ بأن الذبابة قد استسلمتْ لِهَشِّي ونَشِّي وأخَذَتْ طريقها خارج غُرفتي سَرَبًا مغادِرَة إلى غير رجعة؛ فَرِحْتُ، رَقَصْتُ، حتى إنني غنَّيتُ جميع أغاني السبعينات لفاضل عواد وقحطن العطار وحليم وعبدالوهاب... حمدتُ الله واستبشرتُ خيرًا.

حاولتُ بعدها الاحتيال على سهادي برقادٍ ولو لدقائق، لكن دون جدوى. منظري يوحي بالغباء وربما الجنون وأنا أُمسِك برأسي مطأطأً مفكِّرًا بمصيري، فأنا كائنٌ هلاميٌ يستحق العطف.

رضختُ أخيرًا لواقعي ورُحتُ أحسب الدقائق حتى موعد خروجي للعمل، فجميعنا كائنات لا تنتظر شيئًا سوى أن يمرَّ الوقت وأنا فيهم الميت الأوحد الذي يردِّد بتواتر وتِكرار:

– لا تختلف أحوالنا نحن الموتى إن أشرقت الشمس أم غربت.

لنخلص أخيرًا بفلسفةٍ تقول: إن الحياة خُلِقتْ هكذا، ويجب أن يعيشها أحدُنا كزائرٍ خجولٍ لبيتِ أحدهم، وأن يقتنع بها مثلما يقتنع الفقراء بطبخ طعامهم سلقًا إنْ شَحَّ الزيت... فلا فرح هناك ليُطلَّ برأسه مُبشِّرًا بنهاية عالَمٍ داعرٍ نحن أبطاله... ومن هنا يتحفَّز الأخرون لمنحنا لقبَ «قديس» بعد طول اختبار، ربما سُخريةً وليس استحقاقًا... ولكن هل شرط أن يقاسي المرءُ مُتجرِّعًا مرارة الحياة ليستحق لقب قديس؟

لذلك كنت أواجه هذه الهلوسات بتشكيل فصولٍ من المقارنة بين ما أنا فيه، أنا البائس الهامشي حيث كل الصخب والألم هنا، وبين ما هم فيه أولئك المنظّرين حيث كل السكون والدِّعَة هناك.

تخيلتُني أغرق وسط بحرٍ من الوسادات التي اِشمئز رأسي منها، كانت جميعها خشنة رغم حشوها بريش طير «الخضيري» إلا أنها أصبحت لا تُطاق... رميتُها بعيدًا فتناثر الريش في الفضاء ليبدو المنظر وكأنه ساحة عراك للطيور بمختلف ألوانها، وأصنافها، حتى انفض المشهد عن آخر ريشة وهي تتزحلق هابطة برشاقة برشوت طيارٍ فشل في أول تجربة طيران... تابعتُها وهي تحاول الهبوط عند عينَيّ، وما إن وصلت هناك حتى اختفتْ واختفى المشهد برُّمته.

وضعت ابتسامةً مزيفةً على وجهي وأنا أتذكر مقولة أبي الخالدة: (كلما جلدتْك الأيام بعويلها؛ غَطِّ وجهكَ بابتسامةٍ مزيفة للاحتيال على الواقع المرير)... ففعلتُ حتى سُجِّلتُ لدى العالم كأكبر مُحتالٍ عرفته الأُمم!

وسط هذا الانكسار المرير وبلا إرادة مني؛ مررتُ يدي إلى أحد أدراج مكتبتي كمن يدسُّها في جيبه لحظة شعورٍ بالبرد، فعلقتْ بأصابعي حفنةُ رسائل غرامية قديمة فوجئتُ بها واستقبلتها بتضادٍ للمشاعر ما بين فرحٍ وحزن، دعتني ذكرياتها لأن أنود برأسي كالمخمور لأنها رسائلٌ تحمل ذكرى عطرة على قلبي، رسائل ملاكٍ سرقه المجتمع عنوةً مني، فقد أرسلتْها لي حبيبتي قبل سنين مضت.

وكَمَنْ يلعب لعبة الحظ «الروليت» استخرجتُ واحدةً منها، فاذا بها الرسالة الأخيرة لها. شرعتُ في قراءتها وكأنها تمرُّ عليّ لأول مرة:

– حبيبي... هذه آخر رسالة أكتبها لك، فقد قرَّرتُ الانتحار حرقًا ووضع خاتمة لآلامي التي لم تُراعِها أنت بحلٍّ أو مبادرةٍ منك لتفويت الفرصة على ابن عمي الرجل الأُمي بالزواج مني بالإكراه، هذا الزواج الذي سيباركه الأهل والأصدقاء بالأهازيج والزغاريد والرقصات، وكذلك الطعنات لقلبي... كان أمامك منفذ سهل الولوج للخلاص وبكلمة واحدة (جئتكم راغبًا بخطبة ابنتكم إيمان)... أعلم أنَّ هذا الجسد الذي سيتفحم بعد آخر كلمة في هذه الرسالة لا يمكن لكائن من كان أنْ يملكه سواك... لذا اخترتُ ميتة عظيمة لي كي تذُكِّرك بكلماتي التي كنتَ تعشقها (حرائقُ مُدني... بعضُ أنفاسك).

تخيَّلتُ النار المقدسة التي شبَّت في ثيابها وهي تلتهم أنوثتها التي كنت أقارنها بأنوثة الممثلة سعاد حسني، وكان هذا يسعدها، بل يجعلها تَنطُّ من الفرح كأرنب في جَنَّةٍ واسعة...

النار التي التهمت جسد حبيبتي أكلتْ أطراف روحي وما زالت تواصل صعودها حتى بِتُّ أنتظر وبشوقٍ يوم تأتي على آخر ما تبقى لدي من وجود لأستريح غافيًا في العدم...

كنتُ جبانًا وبمرتبة الخزي... كنت مترددًا... كنتُ قاتلاً مع سبق الإصرار والتعمُد!

ما استخرجتُه من رسائل حبيبتي دعاني لاستخراج دفتر قصائدي التي كَتَبْتُها لها خصيصًا علَّني أجد حسنةً وحيدةً أرمِّم بها نذالتي وتقصيري اتجاهها... فتحتُ الدفتر عند صفحتين متلاصقتين، كدتُ أنْ أعبث بحروف القصيدة لكنني فتحتها على أي حال، والتي كان مطلعها...

حبيبتي
أخيرًا
بعد بحث طويل
وجدتُني
كلمةً على أعتاب قُرآنكِ
ذي الآيةِ الواحدةِ

أمعنتُ النظر مليًّا في صَفْحَتَي الدفتر، ثمة ما يثير التساؤلات... صفحة علِق بها دَمٌ متيبِّس، وبالصفحة الأخرى علق شيءٌ هالَني منظره... يا رباااه... إنها ذبابة متيبسة التصقت بقوة على ظهر الصفحة... كيف تسرَّبتْ بين الصفحتين؟ منْ كبس الدفتر عليها بهذا الشكل؟!

تذَّكرتُ آخر مرة قرأتُ فيها الدفتر، كانت قبل يومين من الآن، ربما أتت هذه الذبابة للاستمتاع بقراءة كلماتي وهي

تزِّين دفتيّ هذا الدفتر الذي أطبق عليها بهذه القسوة دون عِلمٍ مني... أيُّ جريمةٍ مهولةٍ ارتكبتَها أيها الهلامي بقتلك هذه الذبابة الرومانسية العاشقة المُحبة؟!

سلسلةُ الجرائم تتعدَّد في هذه الليلة وتتوسَّع أحداثها... وما عساها تريد تلك الذبابة التي أقلقتْ منامي قبل قليل، والتي طردتُها بقميصي خارج الغرفة؟

ياربااااه... ربما أتت لتطمئن على الذبابة التي قتلتُها داخل الدفتر؟!! يا ترى مَنْ كان منهما الذكر ومن كانت الأنثى؟ وما سِرُّ هذا التواجد لهما وسط غرفتي وبهذه الأحداث الدراماتيكية؟

جميع ما حدث ليس حلمًا، إنَّها الحقيقة، الذباب يخبر الإنسان بحجم ما خسره من إنسانية على أعتاب أنانيته... (أيها الهلامي: أنت مُدانٌ تستحق التلاشي)... هذا ما أراد الذباب إبلاغه إياي...

أرضخُ للإدانة وأعترف بها... أهشُّ بقميصي عليَّ، فأطردني خارج غرفتي، أستنشق نسيم الشوارع المتربة بالنفايات، تبتلعني متاهات الأزقة الموحشة إلا من هسيس نيرانٍ لاهبة، تطاردني لعنات وصيحات جيشٍ من ذبابٍ يهشُّ عليّ نافخًا بأجنحته على مؤخرة وجودي، حتى أكلتْ النار المتبقي من ظِلِّ أنَّاتي.

– أيها الهلامي: أنت مُدانٌ تستحق التلاشي.

اللوحة

الْتَفَتُّ إليه حانِقًا، فلاحَتْ لي يدُه تزحف كأفعى راقصة قُرب جهاز المذياع المتهالِك وهي تعبث بأزراره. وبعد تجوالٍ قصيرٍ في محطاتٍ إذاعيةٍ محدودة استقرت أصابعه على إذاعة تبث أغنية «يا حريمة» للمطرب حسين نعمة.

مع كمِّ القُبح الذي غازل لوحات حياتنا ما عادت تلك الأغنية الشجية وغيرها من أغاني السبعينيات هي المفضَلة لديّ كما كنتُ أستعذبها فيما مضى، وخاصةً في ظل ما يقوم به هذا المجنون الجالس بجواري وهو يحتضن مِقْوَد السيارة بطريقة مستفزة أفقدتني مُتعة سماعها... فقد راح يتمايل برأسه المدوَّر مع أنغام الأغنية التي باتت نشازًا يلِدُّ نشازًا آخرَ، مما دعاني إلى نهره بعصبية:

- ركِّزْ على الطريق رجاءً!... ياحبذا لو زدتَّ في سرعتك والتزمت الصمت، أنا على موعد مهم... أرجو أن تُقدِّر ذلك... أفهمت؟

- ما هذا التناقض العجيب فيما قُلتُه؟ إن التركيز على الطريق وسرعة القيادة، سِكّتا قطارٍ متوازيتان لا لقاء يجمعهما... دعك من كل ذلك واسمعني جيدًا...

تمتمت بشفاه مبهمة وكأني أسرُّ سقف سيارة «السايبا» التي تربض فوق رأسي كظلِّ عنقاء متوحشةٍ بسرٍّ لو أعلنت عنه لماجت الأرض بأهلها.

– فيلسوف ابن الـ ؟؟؟؟

ردَّ عليَّ بوضع جناحين على لسانه وانطلق بهما مبتسمًا يبصق بكلمات غريبة تفاصيل حياة المطرب وأثر الأغنية على حياته ذاهبًا باتجاه مغامراته الشخصية وعلاقاته الحميمية مع النساء... تطلَّعتُ فيه نافخًا أوداجي فلم يأبه لها بل واصل هذيانه على أنغام الأغنية.

ودون سابق إنذار هطلت الأمطار بشدة واضحة، بدا أثرها جليًّا وهي تنقر صفيح السيارة وزجاج نوافذها كفريق دجاج ينقر كومة حنطة بِشَرَهِ الجائعين... انعدمت الرؤيا من خلال زجاج السيارة الأمامية فعالجها السائق بتشغيل الماسحات ولِقِدَمِ تلك الماسحات ويباسها راحت تعزف لحنًا غوغائيًا همجيًا زاد من مستوى القهر الذي لازمني في ظل هذا السائق المُتَخَلِّق بأخلاق بعوضة تافهة.

– يا صبر أيوب!!

فَكَّرتُ جِدِّيًا بإيقافه، والنزول لكراء سيارة أخرى. لكنّي تراجعت عن ذلك لأنّ النتيجة ستؤول إلى عدم وصولي قاعة المعرض التشكيلي في الوقت المناسب والتشرف بمشاهدة لوحات الرسام العالمي «نادر النادر» القريبة لقلبي، وبالتالي سأفقد هذه الفرصة الجمالية التي انتظرتها طيلة أعوام مضت بقدومه بعد طول غياب في بلاد المهجر بغية أنْ يقدِّم أعماله هنا في بلده بعد تحقيقها نجاحًا كبيرًا هناك.

لا خيار لديّ سوى تحمل هذا اللجوج ومتابعة حركاته المقززة فاقتنعت صاغرًا مثلما يقتنع الفقراء بطبخ طعامهم سلقًا إن

شحّ الزيت، عملت الشيء الوحيد الذي أقدر عليه إزاء هذا العذاب بأنْ أدميت سبابتي عضًّا حتى كدت ألتهمها، حيث تنازعني شعوران: شعور الندم وشعور الحنق.

اجتمع المطر بمعية المطرب «حسين نعمة» وصوت الماسحات بتحدٍّ كبيرٍ في مواجهتي لتتسرب أصوات الجميع من خلال طبلة أذني حتى أعماق روحي لإقامة حفلة تقريع وتعذيب لذاتي بسادية كان قائدها رعونة هذا السائق الذي واصل عدم اكتراثه لِمَا أنا فيه فمدَّ يده اليمنى لرفع حدة صوت الأغنية، علا الصوت فالتفتَ إليّ... فَعَلَتْ مناسيب قهري، ثم عاد من جديد فغيَّر الموجة فكانت أغنية شعبية لمغنية لم تبلغ حلم الطرب أرغمتني على كُره الموسيقى برمتها فرُحتُ ألعن بصوت مسموع غير وجل:

– الله يعابيكم يا بتهوفن يا عبد الوهاب، يا كاظم الساهر

أخرج يده اليسرى من نافذة التاكسي واستقبل دموع السماء براحة يده المكتنزة اللحم، وراح يصهل مشاركًا المغنية بكلمات أخرى غير كلمات الأغنية وبلحن آخر.

– الدنيا حلوة، الناس حلوة، والوطن باسم سعيد.

– أي سعادة تنشدها أيها المعتوه؟ ستقتلنا. قف هنا.

واصل قيادته وصهيله دون توقف مما دعاني للمغامرة بإمساك مقود السيارة بقوة وإقفال جهاز المذياع والصراخ بوجهه:

– قف... قلتُ لك قف! قف! أيها التافه.

قابل صراخي وجنوني بابتسامة مستفزة وأوقف السيارة

وركنها على جانب الطريق قريبًا من قاعة المعرض التشكيلي.

نظرت لساعتي والغيظ يملأ روحي بعديد بصقات ستغرق الكون لو أنَّها قد تحرَّرتْ... لقد وصلنا متأخرين عن الموعد المحدد لافتتاح المعرض.

ترجَّلتُ من السيارة. غمرتني موجة برد قارص بمعية مطر كثيف لم يصمد أمامهما عديد ملابسي الشتوية في منعهم من التجوال الساخر عند عتبات جلدي الغض. لكنني لم أعبأ بشدتهما، أو بالأحرى لم أشعر بهما أصلاً لهول ما عانيته من سخافة السائق ولجاجته.

استجمعتُ شجاعتي ووجَّهتُ سهام نظري إلى عينيه مليًا ففقأتهما بشدة. ورغم برودة أعصابه المُستفِزّة حاولت كبح جماح تهوري لكنني فشلت. أمرته بفتح نافذة السيارة فمرَّرتُ يدي منها وأمسكت بيده اليمنى هذه اليد اللعينة التي لم تكن تبحث عن المحطات الإذاعية المناسبة بل كانت تلسع عقلي وقلبي بوخز وقرص خبيث، ووضعت النقود فيها وأطبقتها بقسوة وقلت له متعمدًا مشاركة رذاذ بصاقي لكلماتي الثائرة:

– في المرة القادمة لا تُسهب في التمايل كثيرًا مع أنغام الأغاني العراقية وأنت تقلُّ في سيارتك بشرًا، مخافة أن تتسبب بحادث مروري يخسف بك الأرض وبمن معك... نصيحة أخيرة: كُنْ حذرًا يا صديقي من الرقص بساق واحدة مع عشيقتك كي لا تسقط أرضًا فتزدريك، لأنها ستكون في أحضان رجل آخر أكثر وسامة منك، وأقل بصاقًا متطايرًا أثناء ثرثرته، وبساقين كاملين يمنحانه قامة مهيبة.

امتقع وجهه وراح يوزِّع نظراته بين نثار كلماتي بفم غاضب وقدمه الاصطناعية التي لم تتحرك طيلة المسافة التي قطعناها، لكنه تدارك الأمر ولم يمنحني فسحة من نصر أحققه على حماقته، وغبائه، فراح يفغر شدقيه مبتسمًا ببلاهة تخفي مكرًا ونذالة، ثم شَغَّل المذياع من جديد. وإذا بصوت حسين نعمة من جديد بأغنية «العزيز أنت» وقد أطال النظر في وجهي ساهمًا منتظرًا ردة فعلي كيف ستكون.

أثخنني المطر قُبلاً متسللاً من خلال مسامات جلدي الذي أخذ بالارتجاف والرقص... واجهته بتَقَبُّلِ ما يقوم به باستسلام بعد يأسي من معالجة ما أحدثه في نفسي.

تطلَّع في النقود مليًا وكأنه يعدها غيبيًا ثم دسَّها في جيب سترته المتهرئة، ولطمني بموجة ضحك ساخرة عكست ضحالته، وأدار محرك سيارته منطلقًا وهو يوغل في تعذيبي برذاذ بصاقه المتطاير وهو يقول: (لا تقلق... تَكْبُر وتَنسى).

استقبلتُ موجة البرد وتساقط الأمطار بصدري فاتحًا ذراعيّ برغبة الشفاء من كل هذا الوجع. تبلَّلتْ روحي فغُسِلَتْ من أدران هذا السائق المثير للجدل حتى بان ما فيها من رؤى وأحلام. عاودتُ النظر إلى ساعتي بقلق لقد افتتح المعرض منذ عشر دقائق (الحمد لله لم يضع من الوقت الشيء الكثير).

ولجتُ باب القاعة المفتوح قليلاً فشفطني وكأنّه دوامة محيط عانت الأمرين حتى عثرت بي. .. غُصْتُ في أعماق القاعة فوجدتها تكتظّ بالناس من مختلف الأعمار والأجناس، الجميع يتحرك كخلية نحل تتنقل بصخب ودوي بين اللوحات

كحبل الحقائب في المطارات وهي تجوب دائرة بحلقة مستديرة بانسيابية حول المسافرين. تطلَّعتُ فيهم كعدسة كاميرا بلقطة بانورامية فلفت انتباهي أحدهم وهو يقف أمام لوحة تصوِّر وحشًا بوجه إنسان يستل عظام امرأة بجسد وردة، شاهدتُه – أي الرجل – وهو يمسك بيد امرأة تجاوزت عقدها الخامس لم تدع لونًا من الاصباغ لم تلوِّن به وجهها المتغضن، سمعته يتحدث عن جمالها بإسهاب ونفاق عجيب، تردُّ عليه بابتسامة حذرة كي لا تكشف عن أسنانها المتهالكة...

– البرد يقتلني، والدفء الذي أطالعه في عينيكِ سيدتي يدعوني لتذكر «صوبة علاء الدين» وهي تتوهج في ليالي الشتاء الموحشة في بيتنا القديم.

انتبها لي، ولاحظا استغراقي بالتطلع إليهم، فجلدتُهما بابتسامة غبية أشد غباءً من ابتسامة سائق التكسي... صَمَتَا، شعرتُ بالإحراج فأدرت وجهي ناحية أخرى ومشيت متنقلاً بين اللوحات وأنا أحكُّ رأسي بسبابتي ثم أمررها فوق أنفي كأنّي عازف كمان ماهر وكل ذلك خجلاً من ابتسامتي التي صعقت نفاق هذا المتيم بتلك المرأة القبيحة.

دفعتُ بأقدامي مسرعًا باتجاه بقية اللوحات علَّني أجد ضالتي، فلفت انتباهي انتصاب لوحة متفردة عند زاوية مستقلة بشكلها الفنطازي ومعناها العميق. كانت اللوحة لصياد سومري بقامة طويلة، طويلة جدًا، يرتدي البدلة الخاكية وينتعل البسطال العسكري والبيرية ذات النسر الذهبي وهو يقف – أي الصياد – على زورقه القيري المسمى «البَلَم» ورأسه عند حدود الشمس... تطلعت فيه بإعجاب

فوجدته يسحب شِباكه من النهر وقد تعلقنَّ بها حوريات يرتدين السواد نائحات لاطمات وهُن يمزقن الشباك... وقفتُ أمام اللوحة باستغراق فكري، تأملتُها طويلاً، بنيتُ صورًا عديدة تتحدث عن تاريخ نعيشه كل حين، تاريخ من الأنين بصوت مبحوح.

وقف بقربي شخصان تعرفت على أحدهما، كان الممثل والمخرج المسرحي «ساري العبقري»، كشفا عن عبقريتهما بتحليل وتفكيك اللوحة سيميائيًا:

– لوحة عظيمة... هذا الصياد متصالح مع الحياة!! أعطاه الله أجره حوريات في الدنيا قبل الآخرة يتزوج منهن ما يشاء.

– والرسام متدين بالفطرة.

– انظر إلى الصياد ألا يشبه «سعدون أبو طويلة»؟

ضحكا ضحكة مجلجلة اهتزت لها القاعة وانتبه لها حتى الأطفال القادمون مع ذويهم. شاركتهما بابتسامة سخيفة ذات معنى تأنيبي. التفتا ناحيتي فتفاجئا بابتسامتي:

– وأنت يا أستاذ... ما رأيك؟

أبديتُ امتعاضي وانسحبت منهما بهدوء دون أنْ أشفي غليلهما بإجابتي.

السماء ترعد بشدة والمطر يتراقص على زجاج النوافذ كشروخ رسمتها يدُ الأقدار على جدران الحياة الباهتة... واصلت تجوالي بين اللوحات مُعجبًا بها حتى تذكرت صديق طفولتي الفنان «نادر النادر» الذي كنت أضربه ضربًا مبرحًا

لأنّه كان كثير الغش في لعبة «صور لاعبي المنتخب العراقي». ابتسمتُ في سري واستعذبت ذكرى تلك الأيام الجميلة ورحت أبحث عنه في أروقة القاعة لأُقدِّم له التهاني، فأخبرني أحد الضيوف بأنَّه غير موجود هنا بل هو الآن في فرنسا يتسكع في مقاهي الشانزليزيه وأرسل لوحاته هذه بيد أحد معارفه لإقامة هذا المعرض التجاري، حيث لاحظت تواجد هذه العبارة فوق كل لوحة: (اللوحة للبيع). تضايقتُ قليلاً لكن القيمة الفنية العالية للوحات عوضَت الكثير عن وجود نادر بشحمه ولحمه... وماذا كان سيضيف وجوده؟ لا شيء بالتأكيد!!

تركتُ البحث عنه وواصلتُ تنقلي بين اللوحات بروح لطيفة عاشقة للفن التشكيلي.

ثمة شاب بملابس رثَّة لاحظته يتنقل بارتباك في القاعة مرتطمًا بهذا، دافعًا ذاك، يمرُّ بعديد اللوحات مرور الكرام ذاهلاً عن كل شيء، أراه يبحث عن شيء ما قد فقده في زحمة الوجوه التي تطالعه باستغراب... يبدو أنَّه شاب غير سوي دخل المكان الخطأ، اكتفيت بالنظر إليه ازدراءً، وما جعلني أذهل عن متابعته فتاة في العشرين من عمرها تمسك كتبًا بيدها يبدو أنها طالبة جامعية بقميص أبيض وتنورة رصاصية تقف منتفضة بصدر متقدم إلى الأمام كجندي فاتح يأكل كل شيء أمامه، ووجه يشتعل كرمان اقتطف من بساتين ديالى فرطته يد من حرير، وشعر كَلَيْلٍ بهيم يتراقص فوق العينين لاطمًا خدّيها بقُبل هيَّجت مكامن مشاعري ورغبة مستعرة في التكلم معها ولو بحرف يتيم... لكن ما الذي

سأقوله لها؟ أخاف أنْ تردني بقسوة تَمَيَزْنَ بها كل نسوة المدينة اللواتي واجهتهن بإعجابي.

ما العمل؟ الوقت يمضي والمعرض أوشك على الخواء من زوّاره، إلا أنا باقٍ أتجول بحميمية كشفتها أنفاسي اللاهثة... السؤال يجتاح روحي فيحطم أسوارها... ما الحل: (لا تبقَ مكبَّلاً هكذا) نداء سماوي يهز العرش (لا تبقَ مكبَّلاً، تحرَّك)، الوقت يمضي... أتقدم نحوها بعد أن عزمتُ أمري على إطلاق عبارتي التي لا أملك غيرها (أنتِ جميلة، بل جميلة جدًا).

صدَّني عن مواصلة تقدُمي والاقتراب من هذا الغصن الأهيف ذلك الشاب الذي عاد يتسيد المشهد من جديد. أراه يتلفت كسارق عُرِف عنه الغباء، ينط بقفزات ضفدعية. تساءلت مع نفسي هل هو مخبول حقًا، أم يتصنع الخبل... طيب لم لا يشعر به الآخرون؟ لم لا يكترث إليه أحد؟ لم لا يتابع حركاته مخلوق إلا أنا؟ أرى وجهه المحتقن يملأ الشاشة. يتقدم نحو الفتاة، أحاول أنْ أمنعه، أنْ أصده لكن ثمة قيود مُحكمة تحدُّ من حركتي وتكبّل روحي... يقترب كوطواط شرس ويمسك بالفتاة ويحضنها فيَعصِرُ صدرُه صدرَها. حليب ثدييها يُغرق المكان، يلوِّن الفضاء بالأبيض الناصع. وبلمح البصر يهرول بها خارجًا من إحدى النوافذ محطِّمًا زجاجها، جارحًا مؤخرة الفتاة، ينزُّ دمها كميزاب بيتنا القديم في الليالي الممطرة، يَعْلَق شيء من قميصها الأبيض الشفاف في زجاج النافذة، أتابع السارق صارخًا به وسط الناس (حرامي... حرامي). أتطلع إليه من مكان كَسْرِ زجاج النافذة وهو يهرول بالفتاة العاجزة عن المقاومة. المطر الكثيف يعرقل هروب

اللص... ثمة مطب اصطناعي مروري يقف بمواجهة أقدامه اللاهثة... يعثر ثم يسقط، وينهض من جديد... أراه يجري بسرعة في ساحة المدينة الكبيرة يراوغ السيارات المسرعة، يتعثر بمتسول عجوز فقدته المدينة منذ أعوام يوم كان مديرًا لمدرسة آن أوان تقاعده فيها، يسقط، يتقلب فوق الإسفلت الغارق بمياه الله الماطرة، تُكْسَر ساقه، يطل عظامه أبيضَ من بين اللحم والعضلات، يعجز عن الحركة لكنه يبقى محتضنًا الفتاة بكل ما لديه من قوة...

تواصل الأمطار جلده وجلد الفتاة بنفس القسوة، يتبلل جسدها، تختض بيد اللص... الغرابة سيدة الموقف... ما هذا... ما الذي أراه: شعرها بدأ يتساقط حتى بانت صلعة رأسها... ثدياها المنتفضتان تخليا عن تقدمهما فتراجعا للخلف فاختفيا بخسائر مُذلّة... قميصها الأبيض تلوّن بلون الطين والمياه الآسنة... كل شيء بدأ يتلاشى في جمال الله من خلال هذه الفتاة...

المطر يواصل هطوله حاصدًا كل جمال في الفتاة، حتى تنورتها الرصاصية انزاحت عنها بعيدًا... توقعت أنْ تظهر ساقاها بعد انزياح التنورة كعظم عاج لامع شفاف واعلان حالة عري، لكن التنورة اختفت فاختفى الساقان فبانت أحشاء بطنها وكأنها بلا عجيزة، وآخر ما تلاشى عنها بريقها الذي كنت أراه متوهجًا في القاعة بإطار خشبي مزخرف وهي تتكئ على الحائط باعتداد.

أترك النافذة المكسور زجاجها وأنفذ خارج أسوار القاعة سريعًا فيبتلعني الشارع الممطر أصباغًا... سائق سيارة الأجرة

اللجوج يمر سريعًا بسيارته فوق السارق وألوانِه التي صبغت شوارع آهاتنا تاركًا آثار عجلاتها ترسم لوحة أخرى يسودها القبح حيث ما زال يصهل ببصاقه برفقة حسين نعمة وهذه المرة بأغنية ليست له (آنه المسيكينة... آنه المظيليمة... آنه الباعوني... بتكسي سحلوني).

تواصل سماء الله مطرها بشتى الألوان... ثمة خيط ملون يحتل الساحة برمتها يقودني حيث اللصّ وهو يحتض آخر قطرة لون في جسد الفتاة وكأنه حبل مفتول برقبة نعجة... أوبِّخه بلسان يحمل العطف والغضب:

– ها؟ كنت تطارد خيط دخان، تطارد أصباغًا ملونة نفذت من جدار الواقع فذهبت للمجهول. لقد خانك تقديرك، لم تزن الأمور كما يجب.

كل شيء يذوب، الشوارع، العلامات المرورية، الإسفلت... الرعد يهزم الطمأنينة والناس في ذوبان مستمر... المارَّة وهم يحتضنون بعضهم تحت هطول الأمطار التي استقرت على الأرض تمشي الهوينا مطمئنة وكأن لا شيء هناك... أحد المارّة الذائبين يصطدم بي فيترنح جسدي أمامه، يشير لي بيده علامة الجنون وهو سيد المجانين.

أصرخ بهم: (ماذا هناك؟ أخبروني؟) أتعلّق بأذيال ألوانهم: (ردّوا إليّ روحي)... أواصل صراخي، لا أحد يسمعني، ما من جواب سوى صدى صوتي يغازل صخب المطر فيتردد في فضاء المدينة الموحش رعدًا مخيفًا، حتى وجدتني حينها أستغيث من شدة الألم... ساقي المنكسرة تبحث عن مسعف وسط ساحة المدينة الكبرى وأنا أحتضن إطار لوحة فارغة إلا من

أحلام بمعية ألوان وأصباغ ذائبة تتشكل منها صورة شيطان وملاك، جرفتهما مياه الأمطار بعيدًا باتجاه أطراف المدينة النائمة فوق مياه ساخنة.

- أتسمعين تنهدات السمك؟
- في القاع؟
- نعم
- ما بها؟
- إنها تخشى القرش
- وأنتَ؟
- أنا من يبعث الدفء فيها والأمان... انتظريني
- نحن لا ننتظر شيئًا سوى أن يمر الوقت.

صرير الأبواب المُشرعة

ذات شتاء ثمانيني، اِحتضن الليّل قَمَرَه وغابا عُراة في عناق حميمي يسترهما غناء نجوم هائمة وهي ترقص «الهَجَع»، عَلَتْ وتيرتُه فاشتد الرقص، عندها تناهى إلى سمعي استغاثاتٌ بلُغة الأنين، كانت تأتي مموسقة مع صرير أبواب روحي المُطلّة على الألم، ألفيتها تتسرب من شرخ طولي في جدار تلاشى طلائه كاشفًا عن عديد بصماتٍ لأصابع اتكأتْ عليه لحظة مجون تقليدي، شَهِدَتْ طقوسه غرفةٌ بهيئة مسمار ينقر على ذاكرتي كمطرقة من خوف وهي تعبث بخيالي حتى يتوقف هذا المسمار عن غوصه عند عشٍ مهملٍ في سجن صنيعة سجون أخرى بنفس السجان وذات الجدران الملوثة بالأنين.

حاذيتُ أسماعي من جدار الفضول واسترقت خباياه لمعرفة مصدر هذا الأنين الموحش، ما من إجابة ترطب غليل أسئلتي، سوى جراح تتسع وهي تلتهم العالم، ليتحول الأنين بعدها لعزف جنائزي برفقة سُعال كأنه صرخات غريق مكبَّل الرئتين.

ثمة شيء غريب نفذ من شرخ الجدار ماشيًا على ظهري، عصرته ما بين إبهامي وجلدي، شعرتُ برطوبته تجتاح جسدي، امتعضتُ، فاعترتني رعدةٌ رَقَصْتُ لها كسعفة نخيل

على إيقاع بَصْرِي. تحسَّستُ هذا الشيء الغريب، لا شيء هناك يدعو للقلق، حشرة تَعْتَبِر نفسها أحد أركان هذا البيت الآيل للعدم، احتالت على كل ما فعله صاحب البيت بوضع «مُشَمَع» يحبسها في السقف المتهرئ، لكنها راحت تتدلى بكل أريحية بخيوط وهمية فوق أجساد المساكين من سكنة البيت وكأنها لاعبة سيرك روسية محترفة.

ارتفعت وتيرة السعال وأنينه، تشكَّلتْ على إثرها يدٌ قوية دفعتني بعنف إلى باحة الدار متطلعًا في أبواب الغُرف التي لا نوافذ لها إلا في أحلام النُّزلاء، وكأنه اتفاق مبدئي مع الطُغاة لتكميم أرواح المساكين واستلابها وتدوير الأوكسجين التالف في فيافي رئاتهم.

اختمر تطلعي البوليسي بحثٌ عن إجابات لكل ما يؤرقني حملتها خبايا الغرف الموصدة، تسحبني قدماي بخطوات عريضة اتجاه غرفة «أبي مريم» صاحب البيت الشناشيلي البغدادي الذي استأجرت فيه غرفة بائسة لقاء نصف دينار لليوم الواحد تأوي مسائي من التشرد بعد يوم حافل بالتسكع طالبًا سومريًا جنوبيًا في شوارع بغداد المزدحمة بالأنين... وبهدوء العابثين وبطرف سبابتي ذات الوظيفة اللاعنة دفعت باب غرفة أبي مريم الخشبي المتسخ بآثار أَيْدٍ ملوثة بالعدم، لم يفتح، لكنه لم يكن موصدًا، تلصَّصْتُ بروح مراهق من خلل ثقب موضع «الكيلون» المزال منذ زمن بعيد، ثمة ضوء لفانوس يصارع النعاس تساقط ضوءه كاشفًا عن أبي مريم وعجوزه المنتفخة كبالون، وقد ناما بعناق أسطوري لا يغطيهما شيء سوى برودة الجو ورطوبته... أثارني منظر

ملابسهما المرمية بفوضى معتادة بعد مغامرة جنسية فاشلة، جمعتهما سيمفونية من أنين وشخير عازفها زوائدُ لحمية تتجول بأريحية في جوف أنفَين كبيرَين. اغتالتني نوبة ضحك سخيف حتى دمعت عيناي فاختل توازني لأجد نفسي مندفعًا داخل الغرفة عند رأسَي العجوزين...

تطلعتُ مليًا في الغرفة الشاحبة الضوء كُدت اتقيأ، لاحت لي خرقة بمسمى شرشف سَترتُ بها جسديهما المكتنزين، خرجت بعدها مسرعًا من موقع تصوير لفلم إباحي أنقذتني من أن أكون أحد أبطاله... احتضنتني باحة الدار الدائرية مرة أخرى متنفسًا الصعداء لأني عرفت مصدر الأنين الذي كان يعود للعجوزين.

النعاس يحاصرني، أصل حيث باب سجني، وعند مدخل أحلامي يعلو الأنين من جديد قابضًا على قفاي بيد من حديد وهو يجلدني بعبارة نسجها خوفي.

- إلى أين أنت ذاهب... أما تسمع؟

أنين آخر يغتال طمأنينتي غير أنين شبق أبي مريم وعجوزه، أتطلع باستفهام إلى غرف البيت، أدور معها بانوراميًا بعيون تقاتل لخلق إجابات تكبح جماح أسئلتي. تقف عيناي عند باب غرفة طلبة معهد الإدارة، لا أنين لديهم سوى أنين مواعيدهم الغرامية الوهمية مع زميلاتهم في المعهد وما سيعدونه من مَلقِ الكلمات لاستمالتهن.

أنقل بصري ناحية الغرفة الأخرى لعامل مصري من الصعيد يسكن مع زوجته التي تكبره بخمس سنوات، أرهفت

سمعي لهما، وجدتهما يخوضان بحديث عن جمع دنانير أخرى لشراء جاموسة وافرة الحليب، وبناء بيت من طين يحتميان بسقفه قبل أن تتجاوزهما سحابة فرصة نادرة للتغيير. إذن... الأنين ليس لهما.

سأُجنُّ، ماذا أفعل؟ كيف لي أن أستدل عليكَ يا من تئنُّ في خبايا روحي المعذبة بالوجع؟

أتطلع مرة أخرى بعيون مغمضة في أرجاء البيت الشبح، أصرخ قاذفًا قيء ذهولي على جدران الباحة المملة بألوانها الباهتة...

– تبًّا لصمتك أيها الليل، كيف سمحتَ لهذا الأنين في أن يخترق روحي ليؤرِّق فِراشي النابض بالحشرات الداجنة دون أن أجد له مصدرًا يزيح أرقي وقلقي؟

راح الأنين يخفت تدريجيًا وكأنه جَفِلَ من صرخة التياعي، وثمة يد لا أعرف مصدرها تتشبث بياقة قميصي الأبيض الجامعي والذي لم أخلعه منذ صباح اليوم الماضي، يد عنيفة قاسية جدًا تسحبني بقوة وكأنها يئست من غبائي في معرفة مصدر الأنين، رَمت بي قبالة باب غرفة لا أعرف شاغلها، هناك أنين خافت وسعال، نعم سعال، السعال دليلي لاقتفاء أثر الحكايا من على لسان النجوم.

استبدَّ بي جنونٌ طرد كل عقل وروية لدي، فرُحتُ أركل الباب ركلات لاعب كونغوفو محترف، حتى سقط الباب مغشيًا عليه، فتسربت عيناي من خلاله برغبة متهم في إعلان براءته، هنا كانت صدمتي... شيخ عجوز بمسمى آدمي، مسجى على

سرير خسر قائمتين من قوائمه فعوَّضهما القدر بطابوقتين خجلتين رفعتا السرير على استحياء، ضوء المصباح الخجول يقف بصلابة جاهرًا بحقيقة هذا الرجل، غرفة بائسة يسكنها عجوز متصالح مع الموت، رائحة البول تزخرف فضاء المكان بمضاجعة الأوكسجين المتلاشي، أطلّت بفعل الضوء الخافت صورة قديمة بالأسود والأبيض علت رأس العجوز يبدو فيها وهو يحتضن راقصة بصحبة مطرب مجهول الهوية والعنوان، وغانية لا تجيد الابتسام، وصبية في جنّة عدمتها الخضرة بان نصف ثديها المدور... أي رجل هذا؟ من أين أتى؟ وكيف وصل إلى هنا؟.

- «مسعود».

هالَنِي صوت أجش عرفته متأخرًا، فَكَّكَ أسئلتي بإجابات شافية، استدرت ناحيته، شاهدت أبا مريم وهو يرفع الباب الملقى على الأرض بفعل ضربتي.

- مسعود... رجل ثري خسر ثروته على أعتاب عورة راقصة فرَّتْ برفقة عشيقها إلى مكان مجهول.

عاد أنين مسعود يتسيد المشهد بطريقة رجاء مُذِّل لجوج، أمسكتُ بأقدامه، كانت باردة جدًا، صرختُ بيأس:

- لنأخذه لأقرب مستشفى.

- دعه، سيموت قريبًا، لي تجارب كثيرة مع أمثاله.

قال أبو مريم عبارته بلهجة آمرة وهو يسحبني خارج الغرفة، حانت مني التفاتة إعتذار لمسعود قابلها بلعنات أطلقها أنينه الذي لا ينتهي. تفاقم أسفي وانسحبت إلى سجني مُغلقًا بابه

أعدُّ الثواني متواطئًا مع الأنين في عزف جنائزي حتى مجيء الصباح الذي ينتظره الجميع علَّه يأتي بالجديد الذي يبعث الحياة في الحياة.

استيقظتُ صباحًا بعد نوم متقطع خمد خلاله أنين مسعود، أعلنتُ أسفي لحشرات غرفتي التي طلبت النجدة لهذا العجوز البائس فانكفأت يدي خجلى بلا حراك.

تناهى إلى سمعي حركة غير طبيعية شهدتها باحة الدار وكأنني أدمنتُ سماع كل ما هو غريب وقلق من الأصوات... كانت الأصوات المضطربة لحشد من عمال البلدية وهم يحملون كومة لحم غطتها الستارة القماشية المنتزعة من باب الصعيدي، وثمة أنين يقتفي أثرهم حرَّض الحشرات على البكاء بجنائزية مؤلمة شاركتها روحي المذنبة البكاء ونظراتي تطارد أبا مريم وقد اتخذ مكانًا وسط غرفته وزوجته البدينة قد أحاطت بيديها الغليظتين رقبته المكتنزة كمشنقة غبية وهو يَعُدُّ بتلذذ غريب ما حَوَتْهُ محفظة مسعود من نقود بعدما ورثها عنه بغفلة من التاريخ.

كُلثوم

ضجَّت مدينة «الماجِدِيَّة» فرحًا إثر خبرٍ بَثَّتْه القناة الأولى في التلفزيون العام، مفاده أنّ قاتلاً متسلسلاً يدعى «أبو طبر» تمَّ العثور عليه في ساعةٍ متأخرةٍ من ليلةِ أمس نائمًا قُرب النهر وهو في أشدِّ حالاتِ السكر... وبعد التحقيق الأولي معه اعترف بكل جرائمه التي ارتكبها على طريقة هوليود بقتل عشوائي متسلسل... مما وَلَّد ارتياحًا كبيرًا لدى الناس بعد الرعب الذي شَرْنَقَهم بالقلق طيلة شهور، حيث توزعت ضحاياه بين النساء المتزوجات اللائي يتسوقن من «المَحَط» وهو سوق صغير يتوسط المدينة لبيع الخضروات والفواكه ولوازم النساء الشخصية، وترتاده أكثر نساء المدينة حصرًا.

ورغم هذا الخبر المُحَرِّض على السعادة والفرح، إلا أن الناس بقيت تعيش أقصى درجات الشوق لمعرفة «أبي طبر» من عساه يكون؟ وأي شخصية من أبناء هذه المدينة الهادئة هو؟

وفي خبر متصل أعلنت مديرية الشرطة العامة عن جنس القاتل وهويته بطريقة صادمة وغير متوقعة للأهالي، إذ كشفت مظاهر الحقيقية عن نفسها وأظهرت أبا طبر الحقيقي والذي لم يكن إلا «كُلثوم» العانس مديرة مدرسة فتح الابتدائية، التي كانت تتنكر كل مساء بملابس الرجال

نهارًا وتستدرج النساء المتزوجات ليلاً بإغراء يُسَهِّل الوقوع في فِخاخها المنصوبة، ضاربة معهن موعدَ لقاءٍ ليلي مصبوغ بالحمرة، وهناك في أحد الدور غير المكتملة البناء في مناطق متفرقة من المدينة تقوم بتصفيتهن وفصل رؤوسهن مع خطِّ عبارةٍ مرعبةٍ على جدران هذه الدار الحديثة البناء بقلم إصبعها والحبر دم القتيلة (سيأتي دوركن عن قريب). عبارة طالما أرَّقت سكان المدينة من النساء المبتلَيات.

كما أوردت مديرية الشرطة اعترافًا لكلثوم العانس بأن المُحرِّض الرئيسي لانتقامها من هؤلاء النسوة هو فشلها في الزواج طيلة سنوات ألَمِها الخمسين.

وعن سبب هذا الغلو في القتل وبهذه الطريقة البشعة أجابت كلثوم وبكل ثقة... أنهُنّ «متعافيات» لديهن أزواج يحبونهن ورغم هذا ينحرفن للسقوط في الرذيلة المزيفة التي لا تسمن ولا تغني من جوع فماذا تقول وهي المحرومة من ظلِّ رجلٍ حتى وليس رجل بكامل قيافته وذكوريته.

وكانت أولى ضحاياها أمها!!! نعم أمها... أمها التي وقفت بوجه زواجها وعطَّلت أحلامها اليافعة كالزهور، فحرمتها من مصلح البايسكلات «مجيد» في أول فرصة للحياة بعد رفضها له بحجة أنّه لا يمت لطبقتهم الميسورة بِأيّة صلة كون أبيها مقاولاً كبيرًا و«مجيد» صاحب مهنة وضيعة، فضلاً عن موقع كلثوم الاجتماعي والوظيفي المحترم كونها مديرة مدرسة ابتدائية، وهذا الواقع كان في قابل الأيام وتقدمها وبالاً عليها في حرمانها من الزواج كسائر زميلاتها... وهكذا دواليك ليستمر الرفض من قبل أم كلثوم لكل من يتقدَّم لابنتها كلثوم، حتى

تجاوزتها قطارات الزواج وسياراتها ودراجاتها رغم محاولاتها العديدة في اللحاق بها ولو في محطات متقدمة وبالجري السريع.

الأيام تهرول سريعًا باتجاه المغيب ولم يعد أحد من السوقة والميسورين يكرِّر فعل سابقيه في طرق باب الزواج وطلب يد كلثوم، حتى وصل الحال بها أنّها باتت تتمنى وفقًا لمبدأ أوطأ الطلبات لو مرَّ بها مجددًا خيال رجب البقال طالبًا يدها، لكن دون جدوى، حيث بات الجميع يتوقع رفضه من والدة كلثوم المتعجرفة الوقحة... ولمّا سقط في يدها ويئست من رحمة المجتمع وقلب أمها؛ أعلنت صرختها عاليًا بوجه المجتمع المتزوج، فبدأت بانتقامها المريع بقتل أمها، حيث قطَّعتها وأخفتها داخل أكياس القمامة، ورمتها في نهر دجلة السابح بعيدًا باتجاه الخليج.

قَتْلُها لأمها بهذه الطريقة البشعة أعطاها دافعًا قويًا لتواصل إجرامها بقوة أكبر... ففي جميع حالات القتل المتسلسل تكون قوة وبشاعة الجريمة الأولى للقاتل هي المفتاح الأساسي لمواصلة القتل بنفس أريحي، مطمئن، سلس. ومن جزئية تصفية أمها انطلقت كلثوم بسرعة صاروخ في تنفيذ جرائمها بلا خوف أو تردُّد، وهي تُلوح بِطُبَرِها المطيع وبحركة بانورامية شاملاً نساء المدينة كلهن، بما فيهن المعلمات من زميلاتها في المدرسة.

ولمَّا وصلت إلى مرحلة شعرت معها بالاكتفاء، والشبع، والتخمة من أعداد الضحايا، علاوة على راحة نفسية وإن كانت مزيفة لكنها على العموم شعرت بأنّها انتقمت ممن

تعتقدهن «متعافيات» بَطِرات لا يُقَدِّرْن صفة أنْ يكُنَّ نساء متزوجات وبذمة رِجال وسط مجتمع كثير الكلام، مع اعتقادها الجازم أن عملياتها الاجرامية قد حَدَّت وبشكل واضح من تهور النساء في إقامة العلاقات الجنسية المشبوهة، وبعد هذا الاكتفاء والشبع مع موجة ملل تمكنت منها قررت قطع دابر الحكاية واللعبة برمتها وتسليم نفسها للشرطة، لكنها قبل ذلك تنكَّرت كالعادة بزيها الإجرامي كشاب مليح واشترت بطريقها زجاجة عرق زحلاوي مصطحبة معها سكينها القاتلة وطبَرِها القاطع الفاتك، وتوجهت للنهر المحيط بمدينة الماجدية لتجربة شرب الخمر لأول مرة في حياتها... وراحت تعب في جوفها عرقًا صرفًا بلا إضافات كما هي عادة أعتى السكارى المخمورين... ولما ارتخى كل شيء فيها ووصلت لديها نشوة السكر درجاتها العليا أطلقت لفمها الضحكات الهستيرية مما أثارت فضول الشرطي «أبي الفوارس» الأصهب اللون الذي كان يدور في الجوار لبسط الأمن المزعوم في المدينة المنكوبة، فراح يبحث ببوليسية الكلاب عن مصدر هذه الضحكات الماجنة المشبعة بالألم، ولما وصل عند أقدام كلثوم وجدها جثة هامدة تغط في نوم عميق. اندهش لهذا المنظر الغريب وَرَقَّ قلبه وراح يفكِّر بهذا الشاب النائم قرب النهر بهذه الكيفية المثيرة فراح يتسائل: من هذا يا ترى؟ وما الذي أتى به إلى هنا؟

لكنه ما إن رأى السكين وبجوارها الطبر حتى فقد عقله أو مسمى عقله وراح يصرخ بأعلى صوته ورذاذ فمه يملأ الفضاء:

– ها لاولاد ها... أبو طبر... لقد عثرت على القاتل... وجدت أبا طبرورب الكعبة... وجدت أبا طبرورب الكعبة.

وَثَّق أبو الفوارس أطراف كلثوم بالجامعة الحديدية وحملها مع أدواتها القاتلة إلى مركز الشرطة مواصلاً صراخه مغريًا الناس بتفجير الفضول لديهم ليجتمعوا حوله فرحين وهم يشيعونه إلى مركز الشرطة بصحبة كومة لحم لا يتبين منها شيء سوى رأس تدلَّى على ظهر شرطيّ شبه مجنون، بل هو سيد المجانين.

أبو الفوارس له ثأر قديم مع كلثوم فقد نُكب بمقتل زوجته على يديها في بواكير موجة القتل بعدما أوقعتها في حبالها وأتت بها كالعادة إلى بيت لم يكتمل بناؤه وأمرتها بلهجة العاشق المتمكن من قلب عشيقته أن تنزع ملابسها قطعة قطعة. رفضت أم الفوارس في بادئ الأمر دلعًا رغم هياجها ورغبتها المستعرة في ليلة حمراء مع هذا الشاب المليح، لكنها استجابت أمام إلحاح شهوتها التي لم يُشبعها عجز أبي الفوارس منذ أعوام في منحها المتعة المرجوة، فطفقت تخلع ملابسها قطعة قطعة كما أمرتها كلثوم لتبدو ربي كما خلقتني بجسم لم يفقد نضارته ولم يخسر قوامه المثير... استعذبت كلثوم هذا الجسد الهائج شبقًا فغابتا في عناق أسطوري زَيَّنته القُبَل الحارة بمسار شبق، حتى وصلتا أعماق اللذة التي أنهت حكايتها سكين كلثوم وهي تغوص في أحشاء أم الفوارس لتودي بحياتها بهذا الشكل المريع، لتعمد بعدها إلى رأسها فتفصله بضربة قاضية من طبرها الذي لا يعرف الرحمة أبدًا... من هنا ولدت حكاية الثأر التي لازمت شعور أبي الفوارس وهو الرجل الريفي القادم من

المشرح احدى ضواحي ميسان، المشبع بتقاليد الثأر والانتقام، فقد حرمته كلثوم من زوجته الحبيبة فضلاً عن إلحاقها العار الكبير به، وكم كانت سعادته كبيرة حين ألقى القبض عليها لتعترف في النهاية بجرائمها التي برأت زوجته بعض الشيء من الفاحشة التي سوَّدت وجهه الأصهب.

اعتراف كلثوم بجرائمها أعطى نهاية لأحداث القتل المتسلسلة وبالتالي إغلاق هذا الملف المرعب الذي جعل صاحبات نون النسوة يعشن أتعس أيام حياتهن... لكن الذي زاد قلق رجال الشرطة ولم يدعهم يهنئون بنومهم هو عدم اعتراف كلثوم العانس بقطع رؤوس الديكة في عديد الحوادث الملازمة لزمن جرائمها والقريبة منها مكانيًا وفي حدود الماجدية حصرًا دون تكرارها في مناطق أخرى، كما أنهم لم يحدِّدوا مَن سبق مَن في جرائمه؟... كلثوم وهي تقطع رؤوس النساء؟ أم قاتل الديكة المجهول؟ وهو يعبث مع الجميع بهذه اللعبة السمجة... مَن تَعَلَّم ممن؟ من أوحى للآخر كل هذا الهوس والغرابة؟ لا جواب ممكن له أن يصل بيد العدالة للحقيقة.

وكردة فعل لهذه الأحداث الأخيرة تلقى بيت «أبو سمير النجار» خبر إلقاء القبض على كلثوم وزَجِّها في السجن في انتظار موعد محاكمتها ما بين فرح لانتهاء مسلسل الرعب وما بين غير مصدِّق أن تكون كلثوم بهذه القسوة البشعة... لكن تساؤل «أم سمير» غَيّرمن قناعات العائلة إزاء هذا الخبر.

– المصيبة، أن كلثوم نفت مطلقًا أن تكون لها علاقة بقطع رؤوس الديكة في المنطقة.

أجابها ولدها سمير قائلاً:
– والأدهى أنها وصفت قطع رؤوس الديكة بقولها (ما هذه التفاهة؟)

أدلى أبو سمير بدلوه معتدلاً في جلسته:
– الحمد لله، هذا الأمر لا يعنينا لا من قريب ولا من بعيد، لأن ولدنا «سمير» لا يملك إلا دجاجة لا تبيض.

نهض سمير ذو الخمسة عشر سنة وهو يتكئ على عكازه رافعًا ساقه المحاطة بالجبس بعد كسرها قبل أيام وهو يلعب كرة القدم لوحده فوق سطح دارهم وهو الأمر الذي لم يصدّقه الأب حينها، مما أثار شكوكه أن يكون صادقًا في حجته لكنه علَّلَ الأمر في أنه يخجل من قول الحقيقة بأن تكون دجاجته «حسنة» هي السبب بكسر ساقه.

– شيء جميل منك يا أمي ومنك يا أبي، أنْ ذكرتماني بدجاجتي حسنة كي أُطعمها، فقد نسيتها بسبب هذا الجبس اللعين.

يضع سمير يده على أُذنه:
– أتسمعان صراخها؟... إنها تشكو من الجوع.

يضحك الجميع...

– لِمَ هذه المواربة أيها المشاكس؟!! أنت تنسى دجاجتك!! مستحيل.

الحكاية وما فيها أنه وبعد نجاح سمير من الصف الثاني المتوسط طالبَ والدَه بشراء مجموعة طيور كهدية نجاح له. لكن أبو سمير وأمه رفضا ذلك وتحجَّجا بأنّ الطيور متعِبة ومثيرة للمشاكل مع الجيران، لذلك اكتفيا بإهدائه دجاجة

سوداء تبيض لهم بيضة كل صباح، وربما يجمعون بيضها لكي تفقس بعد ذلك كتاكيتَ جميلة يستمتعون بها كما أخبرهم بائعها في سوق الجمعة باحتيال واضح... استجاب سمير لأفكار أمه وأبيه ووافق على شراء دجاجة. ومرَّت أيام وأسابيع والدجاجة لم تبيض، وانكشف كذب البائع، فاقترح الأبوان بيعها وجلب غيرها. لكن محاولاتهما ذهبت أدراج الرياح أمام إصرار سمير على الاحتفاظ بدجاجته «حسنة» حتى موتها أو موته فقد شغفته حُبًا حتى وصل الحال به أن يترك لها مجالاً في فراشه لتنام معه، مما أثار حنق الأب وقلق الأم لأنها ومع كل صباح تجد فراشه ملوثًا بفضلات الدجاجة حسنة مما يجعلها توبخه بأشد العبارات، لكن خياره لا يتزحزح أبدًا عن الاحتفاظ بها.

وبعد انتشار عمليات القتل المتسلسل لكلثوم زامنها انتشار قطع رؤوس الديكة في المدينة، وكثيرًا ما حذَّرت أم سمير من أن يأتي دور حسنة لتقتل ويقطع رأسها وهي كثيرًا ما كانت تدعو الله أن يخلصهم من هذه الدجاجة النحس التي أتَتْ بالويلات للمدينة الهادئة... وكثيرًا ما كان يردُّ سمير ببداهة غريبة تدعو أمه لفتح عينيها على اتساعهما دهشة:

– لن يصل طبر أبي طبر لرقبة دجاجتي حسنة مطلقًا... فالهدف هو الديكة أتفهمين يا أمي؟ الديكة فقط.

أكثر من كان يشكو من قطع رؤوس ديكتهم بيت أبي سلمان الملاصق لبيت أبي سمير، فقد تكرَّر مشهد مشاهدة الديكة المضرجة بالدم، والرأس المنفصل عن الجسد لثلاثة مرات، وهي كافية لزرع الرعب في قلوب أفراد العائلة، مما دعاهم

لعرض بيتهم للبيع، والانتقال إلى منطقة بعيدة للخلاص من هذا التوجس والرعب الكبيرين، لتحل محلهم عائلة بسيطة مكونة من أب وأم وولد وحيد اسمه جاسم وهو بعمر سمير وبنفس مدرسته فهما يعرفان بعضهما منذ أيام الابتدائية.

كان جاسم كثيرًا ما يجلس أمام دارهم يداعب بيده ديكًا جميلاً بريشٍ بألوان شتى ولديه عُرف دموي كبير وكأنه تاج يتزين به، وعندما يتركه يمشي في الشارع؛ كان يمشي مختالاً فخورًا وكأنه قائد عسكري يتفحص قواته. وفي إحدى المرات وبشعور بالغ بالغيرة أخرج سمير دجاجته حسنة إلى الشارع وتركها تأكل من قمامة الجيران المتكومة في منحنى زقاقهم وراح يتابعها من بعيد، وفي التفاتة منه وجد ديك جيرانهم جاسم يتبختر في مشيته مما أثار حفيظته، فتبرم، وتأفف لكنه بقي مزروعًا أمام الباب يتابع باهتمام ما الذي يجري أمامه. وهناك وجد الديك يمشي الهوينا باتجاه حسنة حتى إذا اقترب منها راح يرقص أمامها بالتفاف غريب استجابت له وكأنه عيد أتى لها بعد طول مصاب. اقتربت منه فراح يعبث بقدمه مجاميعَ الفضلات وكأنه يقدِّمها هدية لها قائلاً: تفضلي، كُلي... نقرت الأرض نقرات لا واعية وعلى استحياء وهي تتلفت يمينًا ويسارًا مخافة أن تلاحظها عيون سمير الذي اضطر للاختباء ومراقبة ما يجري... وهناك شاهد الديك يقفز على حسنة ويضاجعها بشرهٍ وجنون، مما ولَّد قوة كهربائية عالية الفولت تسربت في جسده فصعقته بقوة اهتز لها وأطلق ساقيه للريح وهو يَعْرُج مقتربًا من الديك موجهًا له ركلة بقدمه قذفته كالكرة في الهواء هبط الديك على إثرها كمظلي

يهبط بانسيابية محترفة، فكرَّر سمير ضربته له بفردة نعاله الاسفنجي «أبو الإصبع» فتطاير ريشه في الفضاء...

ومع ارتفاع مستوى الصراخ بين سمير والديك وانهزام الدجاجة حسنة مرعوبة إلى داخل دارهم؛ خرج جاسم من بيتهم مذعورًا ليتفاجأ بهذا المشهد المخيف مما دعاه لإيقاف سمير ولو بالقوة بِلَيِّ يده الحاملة لفردة النعال وهي تضرب الديك مع توجيه ضربة على الأنف أسقطته أرضًا، مما دعا سمير للبكاء والتألم ليولي هاربًا إلى داخل دارهم... ومباشرةً توجه سمير إلى دجاجته يركلها ويحاول هلس ريشها حتى تدَّخل أبوه ليمنعه من مواصلة فصول غضبه.

انقطعت علاقة سمير بجاسم في الشارع وفي المدرسة وباءت محاولات والديهما لإصلاح تلك العلاقة الطفولية إلا أنها قوبلت برفض الوَلدين أيّ محاولة صلح رغم التهديد والوعيد من قبل الأبوين... حتى عندما كانا يتقابلان صُدفة في الشارع ينظر أحدهما للأخر شزرًا مع حركات ساذجة لإثارة الآخر.

وفي واحدة من صباحات صيف تموز المشرقة استيقظ سمير كعادته بعد نوم ثقيل بصُحبة العائلة فوق السطح، تحسَّس فراشه ليتأكد من وجود حسنة بجواره كي يستمتع باحتضانها لكنه صُدم لفراغ فراشه منها... أصابه الذعر وكأنه كان يتوقع مكروهًا سيحل بحسنة لذلك قام بالصراخ والبحث عنها في كل أرجاء البيت، لكنه لم يعثر لها على خيط أثر يوصله لها... حتى إنّه تطلع في سطوح منازل جيرانهم، لكن تطلعاته باءت بالفشل أن تأتي له بصورة حسنة ولو على سبيل الومضة... ولما أعياه البحث حزم أمره بالاعتقاد الناجز والجازم أن جاره

جاسم هو من سرق دجاجته أو ربما قتلها، انتقامًا منه وثأرًا لديكه ذي العرف الدموي، فخرج مسرعًا باتجاه بيت جاره وهو يصرخ كالمجنون:

– سأقتلك وحق حسنة... أخرجها لي وإلا قتلتك.

لكنه وجد جاسم يزبد ويرعد وبنفس هيئته التي هو عليها ويصرخ بنفس عبارات الاتهام:

– أين أخفيت ديكي؟ أين ذهبت به؟ سأقتلك... أين ستهرب مني؟

تقابل الإثنان وجهًا لوجه وأفرغا رذاذ فمهما كل في وجه الآخر وغابا في صراع أشبه بصراع «الديكة الهراتية» حتى أُنْهِكا تمامًا فسقطا أرضًا وكلاهما يمسك بخنّاق الآخر.

– لقد سرقت دجاجتي.

سأل سمير وخيط دم أحمر يتسلل من فيه

– لا... لم أسرقها... أنت من سرق ديكي؟

أجاب جاسم وهالة سوداء ترتسم على عينه

– لا... وداعة حسنة لا.

عقلهما الباطن غاب في حوار آخر كانت نتيجته أن ابتسما لبعضهما وهما يردِّدان:

– معقولة؟!!!

– نعم معقولة... ولم لا؟... ألا يملكان قلبًا؟

•••

مرَّت ثمان سنوات حُبلى بالأحداث المهمة على إلقاء القبض على كلثوم واعترافها بجرائمها... كان أول ولاداتها بعد أيام قلائل من إلقاء القبض على كلثوم، وهي أن أبا الفوارس اكتشف هروب كلثوم بطريقة حيَّرت أصحاب الاختصاص، فقد هربت دون أن تترك أثرًا لها، مما ولَّد اعتقادًا لدى الجميع بقدراتها الباراسايكلوجية الخفية وتمتعها بالروحانيات حيث أكدوا أنهم لم يروها كيف ومتى هربت. والذي حيَّرهم أن أبواب السجن جميعها مُقفلة لم تفتح ولم يُعبث بها وكل شيء هناك على نفس وضعه إلا أن كلثوم ليست متواجدة فيه.

ومنذ هروبها لم تُسجَّل جريمة قتل كسابقاتها بواسطة الطبر، إلا جريمة واحدة هزَّت المدينة بعنف وذلك بعد عدة سنوات من هرب كلثوم من السجن... حيث وُجِدَ سمير جثّةً بلا رأس فوق سطح دارهم وحيدًا هناك في قفص دجاجته حسنة ويغفو بقربه طبر حاد لامع النصل لا دمَ عليه.

أمَّا أبو الفوارس وبعد هرب كلثوم من السجن وعدم العثور عليها؛ عاودته أحزانه المريرة بتذكر فاحشة زوجته التي قضَّت مضجعه فطرد أولاده وبناته من البيت لتفاقم الشكّ لديه في أن يكونوا حقًا من صلبه، ثم عمد إلى شاربه الكث فحلقه، وتطوع للمشاركة في حملات الجيش الشعبي والتواجد على جبهات القتال بمواجهة الجيش الإيراني. وهناك وفي أول نشاط عسكري تم أسر أبي الفوارس مع رفاقه في الجيش الشعبي في منطقة «البسيتين» وقتلهم والتمثيل بهم، بأن قطعوا أعضاءهم التناسلية مع دسها في أفواههم بعد ذلك بمنظر مريع.

أمّا جاسم فبعد تخرجه من كلية الفنون الجميلة قسم الرسم هرب إلى سوريا وراح يمارس هوايته في الرسم. وكانت رسومه لا تخرج عن قصة الدّيك والدجاجة... وكم اجتهد بمحاولات عديدة لبيعها في سوريا والأردن، إلا أنّ كلّ محاولاته باءت بالفشل.

وفي يوم شتائي ماطر طرقت باب شقته في عمان امرأة خمسينية اشترت منه جميع لوحاته وأعطته مبلغًا جيدًا مكّنه من العودة إلى الماجدية مرتع صباه، ليُلقى القبض عليه بتهمة الانتماء للمعارضة ويتم تغييبه حتى سقوط بغداد عام ٢٠٠٣، ليخرج من معتقله مجنونًا بدشداشة مخططة ممهورة بختم الحمار الوحشي وشعر كثيف كشجرة سرو عالية وهو يصرخ:

– لقد سرقت الحكومة أجمل أحلامي، بل أجمل ديك عرفته البشرية... الحكومة فاجرة تسرق ديكة الناس، وحتى دجاجاتهم، فالحكومة كاذبة، قالت ستمنع عمليات القتل المبرمجة عن الديكة، لكنها كذبت وما زالت تكذب.

بانصرام الأيام بعيدًا مع مياه دجلة وهي تغيب باتجاه الخليج بدأت الناس تنسى حكاية سمير وجاسم وأبي الفوارس لكن ذاكرتهم تأبى أن تنسى كلثوم التي ما زال الجميع ينسج القصص الغريبة حولها مؤكدين أنّهم يرونها عند كل خسوف للقمر وخسارة للمنتخب الوطني، وهي تقضم أثداء نساء المدينة كوحش الزومبي.

للموت بقية

ذات صيفٍ قائظ شهدت أولى أيامه انحسارَ الثلجِ عن الموت، فُتِحَت النوافذ أمامه ليقفز متدفقًا بأقدامٍ مجنونة في شوارعنا الموحشة، محدثًا فيضانًا حاصدًا بمنجل من قذائف، وساطور من رصاص؛ رؤوس شبابنا المغلوب على أمرهم، شبابنا الخائف من ظلِّه، والذي لا يملك من الشجاعة شروى نقير في أن يقول: (كلا، قف حيث أنت، إياك أن تقترب) حتى لو جُرِّدَ من ملابسه الداخلية أمام ملأ من الناس وأثخن عبثًا بمقدساته الشخصية النفيسة.

هذا الحصاد المُر تواجد في معارك شمال العراق في «سيد صادق» - إحدى قرى مدينة السليمانية المحاذية لإيران - في حرب الثمان سنوات...

كنتُ حينها جنديًا في أحد ألوية الجيش العراقي الذي كُتب عليه منذ تأسيسه في ١٩٢١ أن يدافع بالنيابة عن قضايا أُمة عاق طالما خذلت أبطالها، أُمة لا تعنيه بالمرَّة لا من قريب ولا من بعيد... حرب ٤٨ - حرب ٦٧ - حرب ٧٣... وأخرها حرب إيران، أو حرب الخليج كما يسميها الإعلام العالمي، الحرب التي أتت على جميع الجماليات المتبقية لهذا البلد المُضْطَهِدِ نفسه. مما جعلنا نتحسر على جميع أيامنا الأقل خسارة رغم بؤسها وقلّة عددها فنستذكرها بمحاولة لاحداث ضجّة تنفي عن هواجس خوفنا بعض ضوضاء الحرب وسُخريتها.

في إحدى عملياتنا الاستطلاعية كنتُ بصُحبة ثلاثة من رفاق السلاح نستطلع منطقة جبلية للبحث عن مخابئ العصاة لتصفيتهم، وفيما نحن نشاكس بعضنا البعض بِنُكات سمجة جميعها تدور حول بساطة الأكراد لقتل الخوف الذي لازمنا منذ أول يوم للحرب، وهو يتوزَّع بين خوف العصاة وهم يتصيدوننا بخفاء الجن، وبين خوف الإيرانيين بقذائفهم التي لا تُميِّز بين خبير وجاهل في الحرب، الجميع في مرمى الزائد... لكن هيهات للخوف أن يموت... أخر نكتة أطلقها الملازم أول «حمادي» صديقي وجاري في مدينة الماجدية كانت تحكي حوارية بين اثنين أحدهما كردي والآخر مجهول الانتماء:

- متى وُلِدت؟
- في يوم الجمعة.
- لا تكذب، سيرميك الله في النار.
- ولِمَ الكذب؟
- لأن يوم الجمعة عطلة رسمية في العراق.

سيطرتْ علينا نوبة ضَحِكٍ هستيري جعلتنا نبدو كمرتادي شارع أبي نؤاس في ساعات الليل المتأخرة ... موجة تأخذنا شمالاً وموجة يمينًا لشياع لذة الخمر وهي تعتلي رؤسنا الفارغة من شيء سوى المتعة...

بدَّدتْ هذه النشوة الساخرة وقهقهات الجنود إطلاقاتٌ نارية بمختلف الأسلحة الخفيفة كدخان سيجارة صفعته يد حانقة فراح يتجوَّل في الفضاء بحُرية لا قيد معها، مما أجبرنا على الاختباء خلف أحد الصخور المتشكِّلة كمصد ناري صمَّمه جنودنا في سابق الأيام للوقاية من خطر اعتداءات العدو.

زخّات مطر الرصاص تتواصل بلا توقف وهي تعلن عن زيارة عاجلة لعزرائيل لالتقاط ما طالته يداه من رفاقنا كما هي العادة... ارتبكنا، فقدنا القدرة على معالجة الموقف، تُهنا عن بعض وكأننا نخوض وسط عاصفة هوجاء...

وما إن كفّت قليلاً سماء العدو عن زخّات رصاصها الماجن التفتُّ وجلاً يمينًا وشمالاً للاطمئنان على بقية الرفاق، لم يتمثل أمامي سوى حمادي وهو يتنفس بقوة.

– أين بقية الجنود؟

سألتُه مستبدلاً حرف الدال من كلمة الجنود بحرف النون كما هي عادتي في السخرية من حالنا البائسة كقطيع من الأغنام في حضيرة سيد بلا ضمير... أشار حمادي برأسه الكروي ناحية جثتين اعتلت أحدهما الأخرى... حاولتُ النهوض لإسعافهما فتمسك بي وهو يقول:

– دعهما... طيور عزرائيل خبيرة في التقاط حبوبها... سنخليهما عندما ننتهي من لعبة الطاولي مع هؤلاء العصاة الذين لن يفلتوا مني وروح أمي خاجية... إلا ملص...

إشارة إلى اللعبة الأكثر شعبية (الطاولي) المنتشرة بكثافة حينها بين العراقيين والتي كان يقضي حمادي في ممارستها في إجازاته الدورية ساعات طوال.

أجبتُه ببوليسية لا تناسب الموقف:

– هذه المرّة الأولى التي يجربون فيها حظّهم معنا نهارًا جهارًا؟

مضت عشر دقائق على هذا الظرف المتخم بلعلعة الرصاص وكأنها هلاهيل نسوة تداخلت مشتبكة فيما بينها في عُرس سومري يأتي كل عشر سنوات مرة واحدة.

بعد لحظات قليلة شمَّ حمادي مصدر هجوم العُصاة بأنفه السحرية والتقطهم بعينه الصقرية، وأشار لي إلى موقعهم بحركة أخرى من رأسه، فرُحنا نمطرهم بوابل من الرصاص المقهور المثخن بالوجع المطالب بثأر رفاقنا الذين غابوا في الرذاذ... مرّت صورهم كمجموعة طيور تشاكس وجهي كل يريد أن يستقر أمام عَيْنَيّ... استجابت رشاشتي ثائرة مرة أخرى بعد أن نهرتها استفزازا لتغني أغنية الفقد في وجوه العصاة، حيث كان يُمثِّل لنا الفقد وانفراط الأحبة هوية تكشف عن مكنون ذاتنا المعذبة... فحيثما وُجِد جندي عراقي حضر الأنين عندها بصوت مسعود عمارتلي وهو يشكو الغياب.

انسحب أحد العُصاة مختفيًا برشاقة القطط إلى داخل إحدى المغارات، إلا أنّ رفيقه ظلَّ يطلق رصاصاته المستهترة باتجاهنا بِتَحدٍّ كبير، مما أقنعنا بأنه مُثكل في عزيزٍ ما، كما ثُكلنا نحن بقائمة طويلة من رفاق السلاح... يبدو أنّ المُتَمَرِدَيْنِ اجتهدا انفراديًا باتخاذ قرار الهجوم هذا لأنه مخالف للقواعد العسكرية في الغش والتخفي، وكذلك في توقيت الهجوم حيث أتى موعده نهارًا، والمعتاد وفي أكثر تعرضهم لنا يكون الموعد عندما يرخي الليل سدوله، ففي النهار تراهم مسالمين حَدّ أن يكونوا أصدقاء حميمين.

– سأتدبر أمره دعه لي...

قال حمادي كلمته وهو يتحرك ناحية مصدٍ صخري آخر... ربض هناك، وبعد عدة إطلاقات مني ومنه سقط المتمرد المثكل جثة هامدة لا حراك فيها، لا أعلم رصاصات مَنْ قبَّلت شرايين قلبه قبل الأخرى؛ رصاصات سخريتي، أم رصاصات جنون حمادي؟

– انتظرني هنا...

قال حمادي والدموع تملأ وجهه وهو يوزِّع نظراته بين رفاقنا وموقع المتمرد.

– إلى أين يا حمادي؟

– لا تسلْ... قلتُ لك انتظرني هنا.

– احذرهم... قد يكون هناك من يربض متحينًا فرصة قتلك... توقف.

لم يلتفت لتحذيري... امتطى رشاشته بكفين من جنون وانطلق حتى مكان المتمردين وأنا أتابعه بدهشة المذهول المعجب بهذه الشجاعة، لكنني لم أنسَ وضع أصبعي على الزناد لتغطيته أمام إنذار ما... شاهدته يصل عند قتيل المتمردين ويرفعه أمامي ثم يهوي معه خلف مصد صخري كان يتمترس المتمرد خلفه.

وبعد دقائق عديدة تجاوزت العشر حرّضت فيَّ البكاء مخافة مقتل حمادي خلف هذا المصد الصخري لعدم ظهوره ولو ظلاً يتحرك؛ شاهدت حمادي وهو يحمل المتمرد بكلتا يديه عاليًا كما في حركة رافعي الاثقال ويرمي به من الأعلى حتى السفح وكأنه يبالغ في الانتقام لرفاقنا، ثم توجه بوجهه ناحيتي وهو يؤشر بعلامة النصر.

انتظرت حمادي حتى عودته قُربي حانقًا كي أوبِّخه على تهوره وجنونه الذي اشاع في نفسي موتًا من نوع آخر لا أُحسد عليه، وما إنْ وصل حتى أمسكت بِخُنّاقه مُعنِّفًا:

– ما الذي فعلته بتهورك يا حمادي؟... كدت أنْ تقتلني... وماذا فعلتَ خلف المصد الصخري مع المتمرد يا حمادي؟

ضحك كثيرًا وهو يغوص بياقة بدلته بين يديَّ... ثم تلا ضحكته بصمت طويل وانفجر بعدها باكيًا بغضب كبير:

– لقد ضاجعتُه ابن الكلب، وأولجتُ قضيبي في إسته ابن العاهرة، ورميتُ به للكلاب في سفح الوادي.

حمادي هذا، جاري وصديقي منذ الطفولة، جندي متطوع شارك في انتصارات كثيرة للجيش، مما دفع الرئيس لترقيته إلى رتبة ملازم أول. لكنّه بقي بنفس الشخصية المحبوبة صديقًا مُحبِّبًا، كما إنّه يتمتع بحس وطني عجيب، فبعد هذه العملية القتالية تم تكريمنا بإجازة لأسبوعين، إلا إنه رفض وبشدة أن يتمتع بهذه الإجازة حتى يحين موعد إجازته الدورية، مما حدا بي أن أتمتع بها لوحدي.

وفي إحدى ليالي إجازتي، كانت ليلة صيفية خانقة مُتَلَفِعَة بالرطوبة الحادة كنت حينها منغمسًا في جلسة عائلية... كانت حواراتنا تدور وبشكل حصري عن جميع الأحداث التي مرَّت بي في وحدتي العسكرية، تواجهني من قِبل عائلتي عدة عواطف مختلفة، فهذه أمي تبكي لحال رفاقي الذين استشهدوا، وأبي يدقِّق بطريقة إدارة المعركة وخططها، أما بقية أفراد الأسرة ولصغر سنهم فيعجبهم عمليات الأكشن والمبالغة في تصوير الأحداث...

وفي تلك الأثناء تناهت إلى أسماعنا أهازيج حزبية، وولولة نسوية، وإطلاقات نارية، وَضجَّة رجالية... فهرعنا بمجملنا إلى الشارع لمعرفة ما يحدث... حيث وجدنا سيارة تاكسي من نوع (كرونا) تقف بجوار بيت «حمادي» وقد استقر فوق سلتها الحديدية جثمان حمادي، وجميع أفراد أسرته يدورون

حول السيارة صارخين باسمه.

حمادي «بزر الكعدة» الذي وُلِد إثر أربع بنات؛ أتى متشحًا بعلم باهت الألوان خالٍ من المعاني إلا من معنى واحد: (القتال في معركة لا ناقة لنا فيها ولا جمل)... (الفناء في حب الرئيس)... (الرئيس الذي يتكرر كل ٥٣ سنة).

أنزلوه في باحة الدار... فاجتمع أهله وذووه وأقاربه وجيرانه والجميع غائب في بكاء مرير، إلا الحزبيون لا يبدو منهم إلا عيون تراقب سكنات وحركات الحضور وآذان تصيخ السمع لكل حرف يخرج كردة فعل من الأهالي... وأنت أمام هذا المنظر لا تجد تعليقًا مناسبًا للحالة سوى أنك تفتح أنابيب عينيك على سعتها لتشاركهم في شق أخدود تتجمع فيه كل دموع القهر والحزن لفراق شاب لم يتجاوز عمره الثالثة والعشرين تربطك به مشيمة الصداقة التي لا تقبل القطع والتلاشي.

وقف كبيرهم وسط الحضور منتصبًا كجبل، وهو رجل مسن لفَّ رأسه بعقال ويشماغ جنوبي تشكل على هيئة شبكة صيد. اقترح هذا الكبير في أن يعجلوا بشحن التابوت إلى النجف وخاصّة ونحن في فصل الصيف اللاهب في العراق الذي ليس بمستطاع جثّة محمولة ليومين على سيارة كرونا مقاومة التفسخ.

– دعوه يذهب بسلام.

أمال الكبير يشماغه على جانبه مكرِّرًا طلبه بالتعجيل بنقل حمادي ليختبئ هناك حاله حال الآلاف من ضحايا الحروب والموت على مَرِّ الزمان وهي تُزَف زرافات ووحدانا كل حين.

امتنعت النسوة، وشباب العشيرة شاركوهم أيضًا بالرفض من لا يُعرف له نسب بالشهيد... امتنع الجميع عن ماذا؟ امتنعوا عن زفاف العريس إلى مثواه الأخير بهذه الساعة دون أن تكون هناك مكاشفات بينه وبينهم، ولو على المستوى المسموع والمقروء في تفاصيل وجهه بعد أن جُرِّدَ كفن الشهيد واظهر وجهه شابٌّ طائش من شباب الجيران... مما حفَّز نون النسوة أنْ تشتغل وتشتعل بعاطفتها الغبية فصرخ الجميع: (اصبروا علينا للصباح حتى نملأ عيوننا بمنظره الأخير). فانطلق صراخ النسوة بفونيم متناغم مع نعيق غراب أحمق، مما حدا بأخواته الأربع أن يرمين بأجسادهن النحيفة فوق الجثمان وهُن بملابس البيت العادية، مما أغرى بعض العيون المتلصصة أنْ تنحت أجسادهن بنظرات شبقة لا تناسب الموقف بتاتًا... صرخن بنشيج جمهوري كاشفات عن صدورهن وهن يقمعن لحمهن المتهدل المحمر بضربات هستيرية... علا صوت حمادي وهو يصرخ بهن:

- كفى إذلالاً.

تحرَّك قليلاً رأسه المحفور بعناية من وسط جبهته برصاصة تلقفها عند الجبل... كاد أن يطل هذا الرأس من تابوته الخشبي ويغيب بصراخ وعويل مع أخواته الأربع على حُريته التي سلبها القدر بمعية القادة، إلا أنَّ ضغط أجساد النسوة عليه وهن يقبِّلنه منعه من الحركة نهائيًا، فرضخ للهدوء والصمت صافعًا الوجوه بنظرات ساهمة.

فكَّرتُ قليلاً بسِرِّ رفض حمادي التمتع بمكرمة الأجازة وإصراره على إكمال مدة دوريته، ربما هو تواطؤ مع عزرائيل

لإكمال القصة بعناية... استعذبت التفكير بحيثيات مقتل حمادي ورُحتُ أطرق على ذهني بأسئلة عديدة وكأنني عامل في سوق للصفافير... مَنْ هذا الذي وَجَّهَ إلى رأسه رصاصة أتت على حياته؟

فكَّرتُ قليلاً بالمتمرد الثاني الذي انسحب داخل إحدى المغارات، ربما هو من انتقم لرفيقه الذي ضاجعه حمادي فقتله ليحرق قلب أهله وقلب جميع من يتصل به بمعرفة.

صرخت إحداهن وكأنَّها إسرافيل يصيح ببوقه: أنْ موتوا فقد انتهى دوركم في حياة لم تكن إلا سهرة تمثيلية مؤلفها ومخرجها معجب بنفسه حد الخيلاء اسمها «الطاعة العمياء»... الطاعة لكل فوقيات العالم السمج.

صرخت الأخت الصغيرة وهي تكفكف دموعها بضفيرتها الطويلة التي تشق جسدها إلى نصفين من رأسها حتى نهاية عجيزتها... أيّدْنَها أخواتها بصرخات متجانسة... (نريده في غرفة نومه التي شاركنا السعادة بها)... غرفة نومه التي ما زالت تستعرض ذكرياته الجميلة وابتسامته المحيرة في صورته المعلقة على الحائط وهو يشرئب بنجمتين على كتفيه لسان حالهما يقول هذا الملازم أول حمادي الغبي المُغرَّر به.

استجاب الجميع لطلب البنات فنقله شباب المنطقة إلى غرفة نومه...

– هونًا... هونًا.

قال كبيرهم وهو يلفُّ يشماغه حول رأسه من جديد بعد أن تهدَّل بفوضى مضحكة نتيجة التدافع حول التابوت

المسجى... ساهمتُ مع الشباب بحمل التابوت ولما نصل وسط الغرفة تمرد التابوت ودفع بنا كل على جانب وهبط لوحده بسكينة الأنبياء على الأرض المعبدة بالفناء...

هناك رأيت صورته المعلقة وهي تهتز راقصة مرتبكة لترتفع يد حمادي خارجة من زجاج الصورة وهي تفتل الشارب الزغبي ثم ترتفع أكثر لتؤدي التحية العسكرية للجثة، لكن اليد دارت يمينًا وشمالاً بحركات استطلاعية وكأنها تبحث عن شيء، ولمَّا لم تجد أحدًا من الرفاق تحوَّلت التحية العسكرية إلى غمة على الجبهة وعبارة مجلجلة: (من أمداك وأمدا النوط الذي كنت تحلم به يا حمادي).

انسحبنا كلٌّ إلى بيته تاركين ذويه ليأخذوا مأخذهم من العويل بقُربه كي يُزَف عند الصباح إلى جنة الخُلد لأنهم أكرم منا جميعًا كما تعلَّمنا من الحزب القائد وهلهولة للشعب الصامت... تركوا الشهيد وحيدًا في غرفته ونام الجميع، لَفَّهُم صمت قاتل، صمت علّق كلمات الرثاء على مشنقة الكذب والزيف، صمت فهمنا منه: (اليموت من فكَر نفسه).

نام الجميع إلا أنا بقيت مضطجعًا أتأمل القمر فوق سطح منزلنا... أنتظره متى يحين إعلان موته المتوقع مع أول إشراقة للشمس ولسان حالي يقول: (شنو... قابل بس حمادي يموت... لازم يموت كل شي وياه بهاي الدنيا).

صمتٌ محيِّر إلا من بكاء متقطع لنسوة الشهيد، تحوَّل بعد مدة قصيرة إلى صمت حذر تشوبه بعض الهمهمات... انقطع العويل والبكاء كُليًا... الهمسات تتردد مشفرة، ترتفع

وتنخفض، تتحول إلى صياح وتأنيب... حتى شقَّت هذه الهمهمات والصمتَ الحذر جُملة واثقة، جُملة آمرة، جُملة لا يملك صاحبها جُملة بديلة أخرى، جُملة صادرة من صوت سمعته كثيرًا:

– وين ولى السائق؟... إي مو اختنكَنا.

اختنقتُ بعبرتي، أصابني رعاش اهتزَّ له سائر جسدي فاهتزت الدنيا بأسرها كدوامة في بحرٍ سافل... أهكذا مصيرنا، رصاصة سخيفة تتوسط جباهنا فتغدو كعلامة يضعنها النساء الهنديات على متوسط جباههم ونسيان وجفاء يعجل بنا إلى المغيب حيث اللاشيء، حيث المجهول؟!

نمتُ على بطني شابكًا يديَّ فوق رأسي وغبت في صراخ وعويل: (إحنا مرة نعيش، مرة نموت، مرة بكل عمرنا)... انقلبتُ على ظهري بعد أن تشبعتْ وسادتي بدموع الخائف الوجل من مصير لا يمثل طموحي بأدنى درجاته... تابعتُ القمر وهو يتلفع بعباءة النسيان متخفيًا وجلاً كأنه ارتكب شيئا مخلاً بالآداب بين النجوم، وجثة شهيدنا خجلى وحيدة لم تشهد منذ أول إطلالة لها من رحم الطمأنينة أي صباح يبشِّرها بشارة الأمان والخير... عندها تلفع كل شيء بالصمت إلا من معزوفة مقرفة يطلقها أنف النائمين حتى الزوال وقول أحدهم:

– شدوا الحبل زين، وحضروا الترمز والصمون والكَيمر... ورانا طريق طويل... لا إله إلا الله.

إنّها قيامة القيامة، فلا همس يبدِّد هذا الصمت المرعب سوى شخير مُحرِّك السيارة وهو يُردِّد:

– وللموت بقية.

ضدَّ مجهول

«ريسان العاكَول»... رجل تجاوز الخمسين من عمره بخمس سنين عجاف، وُلِد صبيحة إعلان إسرائيل دولتها في عام شاذ من شواذ أعوام القرن العشرين، يوم انهزمت أمام قوتها العالمية جميع الجيوش العربية ووَسَمَتْ جبينَها بنكبة خزي كبرى، لازمت وجودها الهش في قابل الأيام، حيث يتذكرها الجميع، لكنّه يضعها في مقاربة شؤم دائمة مع ذكرى ولادة «ريسان العاكَول»، ولا معنى لذكر أحدهما دون الآخرى فأصبحت تجمعهما ملازمة نكبوية بفأل نحس للحياة طالما أكَّده هو بنفسه مستسلمًا عند سؤاله عن عمره وتاريخ ميلاده، فيذكر بلا تردد أو خجل مع شيء من السخرية المُرَّة:

– وُلِدتُ وحيدًا، دون خلق الله، يوم نكبة حتمية من سنة ١٩٤٨، فتعلَّق برقبتي كل خراب الدنيا والآخرة، حتى فَشَلِ أحد الأفلام الهندية الهابطة لـ«شامي كابور» أنا المتهم الأول في المسؤولية عنه.

فيردُّ عليه البعض من المتنمرين بطريقة فجّة توغل عميقًا في جراحه التي تبدو كخارطة بلاد مجهولة المُدن والشوارع:

– ليس هذا فقط... بل إنَّ ولادتك باب نكبات فتحه الله فنسي أن يغلقه.

لذا راح ريسان يجزل في مصارين حياته متجرِّعًا سموم

النكبات واحدة تلو الأخرى، لتغدو تفاصيل حياته سياطًا تَلعنُ جِلدَ أيامه، فتبدو مساحات روحه القصية كجلد حمار وحشي رَسَمت عليه نذالةُ الوجود لوحة جميع خطوطها طريق شجن، ووجع، وعويل لحشود من المنكوبين هو لا غيره من يُمثلهم خير تمثيل، بل هو الحائط الوحيد الذي يجب عليه أنْ يتحمل كل خطايا المدينة ونكباتها المفزعة.

وُلِد ريسان لأمٍّ عمياء عاندتْها الألوان فغارت بعيدًا عن ملمس بصرها كل جماليات الكون، وأبٍّ طاعن في العمر تأخر عن ركوب قطار السعادة في كل تفاصيل وجوده فذهبت أحلامه مع الريح فتلاشى كل شيء فيه الا بعض من رميم روح هشة دفعته ليعمل فاعل بناء بالأجرة والتي يأتي بها آخر النهار دون أن تسد جزءًا مهمًا من متطلبات عائلة عاشت تحت خط الفقر طويلاً، أهونها إيجار غرفة آيلة للفناء في خان بائس في منطقة «أم زلوف»... ليتجول حُرًّا في فيافي أرواح أفراد تلك العائلة العوز والقهر والألم طويلاً دون نهاية.

من هنا انطلقت نكبات ريسان الذي انتفخت روحه بأول نكبة كان يراها ويعتقدها أنَّها أُم كل النكبات، وهي اعدام العائلة الهاشمية المالكة على يد الزعيم ورفاقه، والتي أسَّست لحِقب من القهر والتسلط الشوفيني المهيمن، حيث حاول كثيرًا أن يغيِّر اعتقادات الناس وحتى الحكومات مدافعًا عن نفسه بأن لا يدَ له فيها وفي غيرها من النكبات، ولكن دون جدوى، فالجميع متفق على رأي واحد لا ثاني له بأنَّ ريسان فأل سيء بالمرة على البلاد والعباد.

كل ذلك دعا ريسان للاستسلام والاعتقاد بصحة ما رموه به من «جرفة مو حلوة» كما في الدارج من أقوال عامة الناس إزاء كل فأل سيء... لذا راح يستنزف روحه في البكاء الذي هو أوحد أدواته التي يمتلكها، معتبرًا محاولاته في الدفاع عن نفسه محض هباء وهو يصطدم بصخرة الواقع الساديّ التي تكوَّرت في ذوات من يحيطه من الناس، وأنّ حقيقة فأله السيء تكتنفه من أعلى رأسه حتى أخمص قدميه، والأدلة على ذلك كثيرة، أهونها وفاة أمه قهرًا عليه وهو في الثانية عشر من عمره بعد يومين من اختفائه وغيابه عن البيت لسبب مجهول دون أن يعلم أحد بمصيره، حيث كانت أمه تلك المرأة العمياء فاقدة لرؤية الأشياء وعدم قدرتها على التكهن بها ووصفها، إلا أنَّها قادرة وبكل يُسر ودقّة من وصف جميع تفاصيل ولدها ريسان عن ظهر قلب من شعره، واستدارة وجهه، وسواد عينيه، ودقّة أنفه وفمه، ولمعان أسنانه، وحتى طوله الجميل، فكانت طيلة يومين من اختفائه لم تكفَّ عن النواح والعويل وخمش الوجه وتفريط الخدود حُزنًا عليه وولهًا إليه، وكأنّ لها عيون باصرة أخرى تتوسط قلبها تأْمل بعودته وتكحل عينيها بمشاهدة تفاصيل وجهه البريء، حتى راحت بعد يأس تام من عودته بضرب خاصرتيها لكزًا بكوعيها بقوة لم تعهدها النسوة من جاراتها فيها، لتنتهي بعدها جثّة هامدة لا حراك فيها في وقت كان فيه الأب يجوب المدينة باكيًا بهيئة مزرية حافي القدمين، رث الثياب، أشعث الشعر، للبحث عن ريسان بروح تائهة، حتى كانت نهايته هو الآخر إزاء اختفاء ريسان دهسًا بسيارة أحدهم على الطريق العام قُرب ملعب الشعب الدولي حيث

فرَّ سائق السيّارة هاربًا دون أن يحدِّد شخصيته أحدٌ من المارَّة أو قادة المركبات العديدة الماشية على هذا الشارع الدولي... وكأنّ هناك من أخرسهم وأعمى بصرهم وبصيرتهم ليصمتوا كصمت الموتى دون شجاعة الاعتراف، ليُسجَل الحادث ضد مجهول كما هي العادة في الكثير من عمليات القتل المتعمد التي سادت وتسود أيامنا الذاهبة مع الرذاذ.

اعتقد الناس وهم يحيكون عرى قصة اختفاء ريسان وفقًا لمرجعياتهم الثقافية ومكنون اختلاف طبيعة ذواتهم أنَّه تاه وسط زحمة المدينة وانتهى به المطاف إما مدهوسًا مرميًا على قارعة الطريق فتناثرت أشلاؤه تحت عجلات السيارات وما من أثر له بعد ذلك، أو زُجَّ به في مصحة عقلية، أو دار للأيتام... وفي آخر مطاف توقعاتهم المستفزة ربما رمى بنفسه من أعلى جسر الجمهورية المُنشأ حديثًا وحملته مياه دجلة بيد من صفعات حيث الخليج.

رغم تعدد توقعات الناس لمصير ريسان واختلاف تأويلاتهم إلا أنَّهم اتفقوا على رأي واحد ثابت وهم يتنفسون الصعداء ربما هي خاتمة لكل نكبة وفأل سيء كان هو لا غيره سببًا فيه، إلا انّه وبغير المتوقع خالف كل هراءهم وظهر أمامهم من جديد بملابس نظيفة وجميلة تناسب عمره أدهشت كل من شاهده وهم يتلمسون كل أركان جسمه بيد من دهشة وتساؤل واستغراب.

– ما هذه الملابس التي ترتديها؟

– أين كنت يا وجه البومة؟

– من صاحب الحظ السيء الذي صادفك فأعطاك هذه الملابس الجميلة؟

– فلسطين وذهبت أدراج الرياح.

– نوري سعيد القندرة وصالح جبر قيطانها ماتا سحلاً في شوارع بغداد.

– أمك وماتت بتوقف كليتيها نتيجة للضرب المبرح لهما.

– أبوك ومات بنزيف حاد في الدماغ دهسًا بعجلات متهور ساذج.

– ما الذي أتيت من أجله لتأخذه؟ تكلَّم... لقد أثخنت جراحنا.

حاول التخلُص من سهام عيونهم وهي تتقاطر نافذة بين أضلاعة بالتوبيخ وتحميله كل ترهات الدنيا وسفالة حاضرها، فراح يواصل طَرقه لباب بيتهم دون أن يجيبه أحد من أهله، حتى انتهى به المطاف لركل الباب بقوة بقدمين ناعمتين طويلتين، ولمَّا سقط في يده وما من جواب يشفي وجعه حاول تسلق الباب والنزول في باحة الدار هربًا من أزيز أنفاسهم ولسعات عيونهم، إلا أنّ أحدهم أمسك به من وسطه وطرحه أرضًا وراح يوزِّع نظراته بين جمع المحتشدين مستعلمًا رأيه بما فعل بالطفل، فوجد وجوههم غارقة بعلامات الرضا والقبول وابتسامة فخر تكافئ نذالته.

استند ريسان جالسًا على باب بيتهم يُخفي رأسه بين ساقيه باكيًا بنشيج حزين يفري القلوب... فما كان من أحدهم إلا أن استل بيدين من حديد رأس الطفل من بين

قدميه وهو يستقرأ فيه اجابات ترضي فضولية فجة كشرطي حكومي فقد إنسانيته على أعتاب رضا السُّلطة:

– تكلَّم أين كنت؟ يا من قتل أمه وأباه.

تعثَّر ريسان بكلماته وهي تتخطَّى نشيجه المُر كقفزات امرأة حسناء فوق نصال حِراب شُحذت توًّا:

– بكاء أمي وأبي المستمر، وعوزنا الغافي على أهداب حاجاتنا دفعني لأعمل شيء لهما، فذهبتُ للعلوة أعمل حمَّالاً عند هذا الرجل وتلك المرأة، لكن الجميع يتخطاني لا أعرف ما السبب.

– لا تعرف أيها النحس؟

– يا جرفة الفكَر والفال الأغم.

تفنَّن الجميع بِكَيِّ روح ريسان بنصال سكاكين تتقدُّ جَمرًا وكأن الجميع يسكنهم طلب ثأر من هذا الطفل الذي إلى الآن يجهل الذنب الذي اقترفته يداه.

تطلَّع أخيرًا بوجوههم الكالحة والتي يقف السيف أمامها عاجزًا عن قطعها أو جرحها حتى لقساوتها الكبيرة:

– حتى أتت أمرأة كبيرة وضعت ما تَسَوَقَتْه من خضار في حظني وقالت: اتبعني... تبعتها حتى سقطتُ شبه ميت عند عتبة دارها بعد مسير طويل، ولمَّا استيقظتُ وجدتُ نفسي في بيتها وبقربي صحن فاكهة وهي تطلب مني الأكل وبيدها ملابس نظيفة وضعتْها قربي وطلبت مني أن ألبسها، فرفضتُ وقلتُ لها: أبواي في انتظاري، فقالت: لا عليك سأذهب بنفسي لاطمأنهما فقط أخبرني مكانًا معروفًا أستدل به عن مكانهما، فقلتُ لها: لا أعرف سوى أننا قريبون جدًا من بيت المختار

«شنيشل»، فقالت: ادخل استحم وغيِّر ملابسك وسآخذك بنفسي لأهلك... وبعد خروجي من الحمام بهذه الملابس التي ترونها وجدت المرأة وهي...

– لم تقل لنا ما اسمها؟

بادره شاب طويل القامة بسؤال قطع عليه استرساله بالحديث بطريقة سمجة.

– لا أعرف ما اسمها، لكنها كانت تذكر اسم ابنها الوحيد والذي يشبهني كما تقول واسمه «حسن» حتى إنَّ أحد جيرانها حيَّاها بـ«أُم حسن».

وجد البعض في ما يسرده ريسان وسيلة لتمضية الوقت بشيء من التسلية، فراح الجميع ينصت إليه باهتمام وهُم يُحرِّضونه بين حين وآخر على الاسترسال بقصته ناهرين الشخص الذي قاطعه بسؤاله عن اسم المرأة...

– أكمل... أكمل.

– وجدتُ المرأة وهي تسعل بشدة طالبة مني جلب دوائها في الغرفة القصيّة في آخر بيتها... رحتُ هناك مهرولاً بحثًا عن دوائها، الا أنني وجدت أدوية كثيرة جمعتها كلها وأتيتُ بها ودفعتها لها، فأخرجتْ من بينها دواءً وضعته على فمها وتنفست منه عدة مرات حتى شعرتْ بالراحة، فطلبتُ منها أن تعيدني حيث أهلي كما وعدتني، لكنّها كانت مريضة جدًا ربما بسبب المسير معي من علوة المخضر حتى بيتها، فطلبتْ مني البقاء معها حتى تستطيع تدبر أمرها وهدوء نوبة سعالها وستأخذني بنفسها لأهلي.

لَفَّ ريسان صمتٌ عميق وأجهش بالبكاء خائفًا وكأنّه ارتكب جريمة ما يحاول إخفاءها، إلا أنَّ أكثر الحضور صرخوا بوجهه معنفين وهم يستحثونه لمواصلة حديثه وماذا يخبئ في جوارير ذنوبه من حقائق تُدينه، وكأنّهم قُضاة أو محققون يريدون انتزاع اعتراف مجرم خطير بات الناس سنينًا يعيشون في ظل جرائمه، يتلبسهم خوف كبير كرداء ضيق يحاولون الخلاص منه بشتَّى الطُّرق.

– نمتُ قليلاً، ثم استيقظتُ على صوت حشرجة صوتها وهي تنادي باسم ولدها حسن، لقد كانت شبه ميتة، فرفعت رأسها وهي تطلب مني إبلاغ بناتها بموتها... وبعد قليل صمتت ولم تعد تتكلم أو تتنفس وسقطت يدها وفتحت فيها بدائرة كبيرة.

ارتفع بكاء ريسان وخوفه بشعور متهم بجريمة قتل...

– والله لم أكن انا السبب بموتها، هي مريضة من البداية.

– قتلتها يا وجه الشؤم.

صفعه الرجل الذي أنزله من الباب ساعة محاولته القفز لباحة دارهم.

– كانت مريضة... خفتُ... وأنا أراها بلا حِراك أو صوت... فما كان مني إلا الهرب... تملكني الخوف... رُحت أركض لا أعلم إلى أين... سكنت الشوارع بعدها، ونمتُ في الكراجات والبساتين، حتى عثر بي أحد أصحاب الكراجات، كان رجلاً طيبًا أحسَّ بأني ضحية مشكلة لا دخل لي فيها، فاصطحبني إلى هنا قُربكم... ولكني لم أخبره بموت المرأة.

– تبًّا لك لقد قتلت المرأة.

– أينما ذهبتَ فلابد من نكبة تسحلها خلفك كذيل كلب لا يكف عن الاهتزاز.

– سيد النكبات أنت.

– يجب أن تُسلَّم للشرطة وهي التي من يقتص منك

قطع تواصل توبيخ المحتشدين لريسان صوت نسائي متعب وهو ينهر الجميع:

– من يجب أن يُسلَّم للشرطة هو أنتم يا من تنكرتم لإنسانيتكم... كيف سمح لكم ضميركم لتقفوا هذا الموقف من طفل عاندته الدنيا ورمته بكل شرورها؟

التفت الجميع ناحية امرأة كبيرة في العمر وهمس متسائل يراود سقف حضورهم بتخيلات جانبت الحقيقة، فَعَلَتْ وجوهَهم إمارات دهشة ما إنْ شاهدوا ريسان يقفز ناحيتها مخترقًا اثنين من الحاضرين حاولا منعه ولم يفُلحا، حتى وصل عندها فغاب في أحضانها فابتلعه دفء حنانها وأجهشا في بُكاء مُرٍّ حيَّرَ الجميع.

غادرهم ولسان حاله يقول: (أيها الأموات ألتمس لكم العُذر بخيانتي وعدم تذكري بعد الآن، فأنا الميت الذي آثر مغادرتكم).

أخرست السيدة العجوز التي اسمها «أم حسن» صراخ تساؤلات الحضور عن هويتها وما علاقتها بريسان بعدما مسحت دموعه بمنديل أخرجته من حقيبتها الشخصية:

– أنا السيدة التي ظنَّها هذا الطفل البريء قد ماتت إثر نوبة سُعال معتادة.

بعد معرفة أُم حسن بوفاة والديّ ريسان اصطحبته معها بعد حوارات مع أهل المحلة ومختارها حيث سادت بين الجميع سعادة منظورة لا تخفى، فقد تخلصوا وللأبد من أعتى فأل سيء عرفته المحلة... وفيما هما يغادران هذا الجمع خاطبها أحدهم وهو يكتم ضحكة بائس خرج من أسوار سجنه في أول يوم للعيد الكبير:

– مهنايه بي حجيه.

•••

عاش ريسان بفرح غامر في كنف أم حسن تلك السيدة التي تحدَّت به بناتها الثلاث وأزواجهن الذين أوجسوا منه خيفة أن ينازعهم على ميراثهم في البيت والسيارة ومحال شارع السنك التي هي من أملاك السيدة...

عاد ريسان للمدرسة وتقدَّم فيها وكان طالبًا ذكيًا وتحصل على درجات مميزة أكدَّت صواب قرار أم حسن باحتضانه واتخاذه ابنًا لها...

وفي لحظة سمر جمعت ريسان معها ابتدرها بسؤال عن حسن، فاهتاجت له مواجعها وقرَّح جفونها ببكاء مُرّ أغرى ثمة طيور في حديقة منزلهم على النواح بلطمية شهيرة...

– حسن آخر العنقود على رأس ثلاث بنات، كبر واشتدَّ عوده حتى تخرَّج ضابطًا في الجيش، ومن ثم التحق بحماية الملك... ولأنه مؤمن بأداء واجبه بأمانة والحفاظ على قسمه بالدفاع عن الملك والدولة قاوم رجال الجمهورية وثورتهم

فأودعوا رأسه رصاصة كانت كفيلة بِكَي قلبي بحديد الحزن الصدأ وإعلان بداية الثورة، لكنها بالنسبة لي إعلان بداية العد التازلي لموتي... أتعلم يا ريسان؟ أنت تشبهه وكأنك هو.

•••

توفيت أم حسن في إحدى نوبات الربو التي كانت تهجم عليها باستمرار، مما ولّد حزنا كبيرًا ساد حياة ريسان وجعله يبدو كشيخ كبير افترسته الهموم على عجل... لم يقف موتها عند مثابة حزن متراكم لدى ريسان، بل تعدَّاه إلى الطرد من البيت من قِبَل بناتها وأزواجهن الذين وبَّخوه كثيرًا وأوسعوه ضربًا لأنَّه كما أُشيع عنه فأل سيء وهو السبب الرئيسي في كل نكبات العالم، حتى وصلت بهم مراحل السخرية به أن يقول له زوج ابنتها الكبيرة مع بصاق ساد وجهه المدور راسمًا ميدان جري أولمبي تحسَّس من خلاله رائحة خمر كريهة عاثت في فمه طويلاً:

– انت اليشوفك ويريد يشتري ركَيه هم تطلع بيضة ولو يعيدها عشر مرات لازم تطلع بيضة لأنّك فكَر... فكَر... افتهمت؟ فكَر.

صرخ به الجميع بما فيهم الشيخ المعمَّم زوج البنت الوسطى وهم يثخنون جراحه بالركل والسباب والشتائم، ليعود من جديد للتشرد والضياع، ولكنه هذه المرة كان أكثر نُضجًا وتعليمًا ووعيًا وخاصةً وهو في المرحلة الأخيرة من دراسته، فناضل بشتى الأعمال في سبيل استمراره في الدراسة حتى الحصول على الشهادة التي تؤهله ليكون معلمًا محترمًا،

فعمل حدَّادًا، صبيًا في مقهى، بائعَ جرائد ومجلات... وفعلاً تحقَّق له ما أراد، ولكن مع فقدان كثير من المثابات الإنسانية واختراق وجوده بجلد جوانيات روحه ونهبها، مما جعله يعيش كراهية وعداء كبير للمجتمع والسُّلطة اللذين انتزعا منه وبعداء واضح كل جماليات طفولته وشبابه ورميا به معلمًا نكرة في مدرسة نائية بعد تفاصيل مُرة وقاهرة في خدمة العلم التي يصفها بخدمة الطُغاة عاصر فيها ثلاثة حروب أكلت المتبقي من روحه، وفي آخرها عند حرب الشمال ونهايتها باتفاقيات هزلية الخاسر الأوحد فيها تترجمه هوسة أهالي الجنوب: (طر كَاعة لفت برزان... بَيَّس بهل العمارة)... ليصرخ ريسان بأعلى صوته سخرية من قدره وحتمية وجوده وهو يستلم دفتر الخدمة العسكرية مكتوبًا فيه تسريحه من الجيش للمرة الثالثة.

– آسف أيتها الحروب لأنك لم تلتهمي المتبقيَّ من ظِلّي... آسف مرة أخرى.

ومع أول أسبوع له مُعلمًا في مدرسة نائية انْقَضَّتْ على غير العادة قوة عسكرية على المدرسة واعتقلت ثلاثة من معلميها كان ريسان أحدهم بل كبيرهم حيث شيَّعهم جميع التلاميذ ومعلميهم وحتى فرَّاش المدرسة المريب إلى الباب الخارجي وهم يدينون ريسان وفأله السيء على مدرستهم بنظراتهم المؤنبة، ليرد عليهم بضحكة جلدتهم بمعية القوة العسكرية وهو يقول:

– ما نحن إلا جروح مفتوحة تئن كلما مسَّها الهواء البارد.

مع أول خطوات ريسان ورفيقيه في ممرات دائرة الأمن التي تتوسطها غرف التحقيق والتعذيب دُفع بكل واحد فيهم بمفرده إلى غُرفة شبَّهها ريسان بقبر أم حسن التي دفنها بنفسه في سرداب من سراديب مقبرة النجف، غرفة تضجُّ برائحة كريهة تتجول فيها أشباح الموت والإخصاء والهزيمة...

– منذ متى وأنت متنكر تختبئ بيننا؟

– لا أعرف بالضبط... ربما ساعة أول إشراقة للشمس.

– لماذا لم تحفر قبرًا لك تختفي داخله وللأبد وتنهي الحكاية هناك؟

– أفكِّر بذلك مستقبلاً.

– وهل لك مستقبل تعتقده؟

– على أية حال.

– هل لديك أطفال؟

– نعم... وإن سألتني عن أسمائهم فالذاكرة لا تسعفني خذلتني كثيرًا.

– أي من تلاميذ المدرسة هم أبناؤك؟

– جميعهم.

– لماذا عضضت الملك من قفاه؟

– بل شاهدتُ سَحْلَه.

– هل عندك شك بأننا لن نؤذيك؟

– واثق من ذلك... لأنني خراء تخافون أن يلوثكم رذاذه؟

– مع أي جانب أنت؟... هناك حرب تلوح في الأفق.

– خبرتها جميع الحروب منذ أول تفاهة في حرب البسوس... الجندي الإحتياط... ريسان المغرر به... المشارك بحرب لا ناقة له فيها ولا جمل... سيدي.

ساد غرفة التحقيق صمت طويل حطم جدران الغرفة المعتمة مما دعى ضابط التحقيق لأنْ يصرخ بريسان موجهًا ضربة قوية على رأسه أسقطته أرضًا سَمِحَتْ لدم لا لون فيه أن يتحرَّر ملوحًا وجهه بخريطة تظهر منابع ومسالك دجلة والفرات.

– هل تثق بصمت ما حولك من الأشياء؟

– خلف كل صمت ثمة مؤامرة سرية.

– وماذا بعد؟

– وخلف كل حرب لابد هناك من ينظف ساحتها ويخفي بصمات جنونها.

•••

خرج ريسان من المعتقل بعد سنين من التعذيب شيوعيًا، أثبت القضاء والطب جنونه مع فقدان لأسنانه اللبنية الضاحكة ولسان حاله يقول: (ما حاجتنا في الضحك؟ لتذهب الأسنان وضحكاتها حيث ذهبت فضلات حروبنا). لكنه حافظ على دراما زيارته لتلك الغُرف المعتمة بين الفينة والأخرى لاعتبارات أمنية وقومية تراها شوفينية السُّلطة منفذًا لتحقيق الأمن العالمي، لتضاف لريسان ميزة أخرى تدعو الجميع للتنكر إليه تجاور ميزة فأله السيء، وهي ميزة

معارضة السلطة وانتماءه للشيوعية التي هو براء منها ومن كل فكر أتت به الحداثة الغربية.

وبعد ما مَرَّ من أحداث خاصة اكتوى بنارها ريسان، وأحداث عامة أحاطت ظله بشيء من الألم ونكأ الجراح؛ ساد بين الناس شعار موحد منطقه الراسخ تنحية أولادهم عن فكر ريسان وشطحاته المجنونة خوفًا على مستقبلهم الطائر على كفِّ عفريت، وكذلك من شبهة الدولة باعتباره سجينًا سياسيًا سابقًا ومن دنى منه بحوار يزيد على الخمس دقائق يُتهم بقيادة تنظيم سياسي ... لكنّه ما كفَّ عن ضخ أفكاره في عقول تلاميذه الذين يعتقد أنّهم البذرة الأولى للخراب لشياع الحياة وسيادة الجمال انطلاقًا من تبني شعار (خذوهم صغارًا)... لذا لابد من منحهم بعض جنونه كهدية مُحب ليشترك الجميع بحفلات ساخطة خارج أسوار السلطة ودكتاتوريتها... حيث اعتاد ريسان في آخر أيام السلطة عند متاهات شتاء عام ٢٠٠٣ عند ذهابه إلى المدرسة أو إلى المقهى أو زيارة شخص قريب أنْ يحمل معه رواية أو أي كتاب متواجد في مكتبات السلطة حتى لو كان كتاب محاولات اغتيال الرئيس لبرزان التكريتي أو المنهاج السياسي لحزب البعث لميشيل عفلق للقراءة بغية طلب الجدوى الأدبية التي يراها شيئًا من خداع للجراح وإسكات لها في أن تئن، أو بالأحرى تخدير لها مع انتظار لنهاية كل هذا الوجع متى يحين أوانها وفي أي محطة ستتواجد.

وفي عصر يوم ما خرج ريسان الذي أكتوى بنار الحصار هو ورفاقه المعلمين بعد غيابه عن المدرسة ليومين من أجل

العمل كحمَّال في علوة المخضر في علاوي الحلة بعد أن ارتدى أفخر ثيابه: قميصًا قُلِب وجهه على قفاه، وقمصلة جلد خسرت جلدها الأسود كحيَّة نبذت جلدها ساعة استحمام فصلي، وبنطال بَهُت لونه فاصبح عسيرًا على أمهر الخياطين ومصممي الأزياء تحديده كلون ثابت اعتاده الجميع، وأخيرًا شحاطة صُنعت من هوز سيارات الدفاع المدني المجاورة بنايتها لسكناهم... وفي أول دربونة ابتلعه أسفلتها شاهد مجموعة من تلاميذه وهم يلعبون الكرة ويتقاذفونها بسعادة بريئة حتى حطَّت بين أقدامه فركلها بقوة تصدَّى لها الطفل الحارس الذي هو مالكها وأمسك بها كقطة شرسة حاولت خرمشة يداه فاحتضنها وتوجَّه بها عند ريسان متسائلاً وابتسامة تعلو وجهه وهو يشير إلى كتاب كان يحمله تحت قمصلته الجلدية:

– هذا قرآن أستاذ ريسان؟

تفاجأ ريسان من هذا السؤال المباغت ومدَّ رأسه متطلعًا في ما أخفاه تحت قمصلته ذات اللون الباهت:

– نعم حبيبي، هذا قرآن... ليش؟

– مو مثل القرآن مالتنا؟

– شلون؟ شنو الفرق؟

– إحنا القرآن مالتنا لافينه بوصلة خضرة، وبصندوگ زغير، وممنوع علينه أن نفتحه... وأهلي دايمًا يحلفون بي من يتعاركون.

– آني قرآني هم أحلف بي... بس ما لافه بوصله.

– ليش أستاذ؟

– أخاف عليه يختنگ ويموت.

– صُدگ؟

– وروح أم حسن.

تطلَّع ريسان في الفراغ وفرَّت من عينيه دمعة حارة لوثت ابتسامة الطفل العريضة.

– ليش تبجي أستاذ؟

مسح دمعته بخجل وافتعل ابتسامة لمداراة اللحظة الراهنة كشفها الطفل سريعًا فبادر للقول وهو يمسك بالكرة بقوة وسط تحذيرات مختلفة من رفاقه الصغار وهم يذكرونه بوصايا أهليهم:

– چا خلي أروح أشيل الوصلة الخضرة منه خاف يختنگ صدگ.

– وأمك؟... وأبوك؟... شتگللهم؟

أمسك الطفل بيد ريسان وتنحى جانبًا بعيدًا عن أسماع الأطفال وهمس له بصوت خفيض:

– ما يدرون بي مخنوگ... عفيه أستاذ... خلي ألحگ عليه قبل لا يموت.

– بس لا تنسى... إحرگ الوصلة وكسر الصندوگ.

تركه الصغير وهو يسابق الريح حاملاً كُرته بحرص ومحبة كبيرة باتجاه بيتهم... تابعه وقد تعثَّر مرّة لكنه واصل طيرانه حيث الحقيقة. مما دعاه أن يمسك كتابه المخفي تحت

قمصلته ذات اللون الباهت وتطلع في عنوانه مليًّا «قصة مدينتين» لـ«جارلس دكنز»... صفعته سعادة كبرى يجهل مصدرها واحتضن كتابه بسعادة وعاد للبيت سريعًا ليواصل قراءته هناك.

وعلى حين غفلة من حتمية دوام السلطة وحصارها للشعب سقط كل شيء وتلاشت معالم الجبروت والطغيان وانتهت حقب الظلم على عتبات بساطيل جنود أمريكا وبريطانيا، ليتأسَّس زمن آخر من الوجع والخسارات التي أجبرت ريسان على البكاء المرير وهو يرى بغداد تتلاشى فتنتها وجمالها كلوحة احتضن صدرها مطرًا غزيرًا لا يكفّ عن الثرثرة استسلمت له ألوانها لتذهب بعيدًا باتجاه نهايتها الحتمية عند منفى مياه آسنة تناقلتها أنابيب الصرف الصحي.

وفي خضم دهشة الجميع بين من صدَّق واستوعب نهاية الدكتاتورية، وبين ذاهل لا يعي ما يجري وما يدور، وبين من ثكلت أيامه فتخيل كل هذا النصر المزعوم خسارات تتراكم كجبل كبير تؤكد حتمية تخاذلنا عن ترميم وجودنا ببقاء مثمر يدفع عن الوطن شرور أعداءه... وفي خضم ذلك انبرى الحاكم المدني الأمريكي الجنرال «بريمر» بمنح الموظفين لاستمالتهم لوجوده المغاير ومنهم بالتأكيد المعلمين؛ مبالغَ مالية وبالدولار، والتي رسَّخت القهر لدى ريسان الذي استلمها من المحاسب بفئة «يك» لا كما البعض من المقربين وأصحاب النفوذ بفئة مائة دولار أو خمسين فراح يبكي ويندب حظه العاثر في أنه متأخر على الدوام عن الأشياء الجميلة، فاستثمر تواجد الصغار في محيط دربونتهم وهم يتقاذفون الكرة بمتعة

يجهلون معها مستقبلهم في إراقة الدم والغربة والفقدان... أوقفهم عن اللعب وراح يخطب فيهم مجنونًا رسميًا هذه المرة لا متهمًا بالجنون كما هو الحال في أيامٍ مضت، فاستهوى جميع جيرانه ترك ما في أياديهم من أعمال والتنفيس عما يعتريهم من فضول لما سيصرِّح به هذا الكائن الهش الذي اسمه ريسان الذي رُفِعت عنه رقابة السلطة وبات متاحًا للجميع في التواصل معه لكن الخوف ما زال رائد وجودهم من كونه لم يزل وجه نحس يرافق أيامهم التائهة في مقبرة روزنامة لا تعي لحظات السعادة تاريخًا لها، لذا كان اقترابهم منه بحذر شديد وكأنه حزام ناسف يحيط وسطهم يخافون انفجاره في كل حين.

– لا أعرف... ولا أتذكر آخر عهدي بالضحك.

ضحك ريسان كثيرًا حتى دمعت عيناه فدعت ضحكاته بطريقة الحث الكهربائي جميع من حظر للضحك والتقلب على الأرض إمعانًا بجو السعادة المفتعلة التي تراود الجميع...

– چنت محروم من كلشي، ما أعرف لذة أو طعم للأشياء، كل حياتي ضيم وضلايم... وهناك وبلا سابق موعد تجيني فلوس ودولارات... يا رحمتك يا ربي.

يُبادر بإخراج ما حوته جيوبه من دولارات والتي يصفها زملاؤه التافهين كما يراهم ويعتقدهم بـ(أن ورقة منها وإن صَغُرَتْ لها القدرة على ذبح طير في الفضاء وإنْ حلَّق عاليًا).

– قفي أيتها الحياة البائسة... أحذِّرك... لا تقتربي... أنا مسكين... أنا دهليز للقهر والجوع والحرمان... لا تحاكميني

فلم أعرفك يومًا... ولم أمُر بساحتك ولا مرة واحدة... فليس من حقك محاكمتي... طز بدولارات بريمر... بل طز به وبمن معه... ماذا أفعل بدولاراتكم... أتزوج بها؟ وقد فقدتُ القدرة على الإنتصاب منذ أول زيارة لي للأمن في صباي بتهمة لا أعرف ما هي فانتصبت رايات هزيمتي وحدها هي من يكشف حقيقة وجودي... ماذا أيضًا؟ أشتري بها أكل وشُرب وملذات؟ وقد فقدت جميع أسناني بتكرار تواجدي أمام قبضات أصحاب الشوارب المفتولة، فضلاً عن إصابة بالسُكر والضغط وربما الإيدز... ماذا بعد؟ أسافر بها؟ ولست من هواة الجوازات وتحري المنافي في أوربا وأمريكا، فضلاً عن سيقان عرجاء أتخمت بتعذيب الفلقة في غرف التحقيق السلمية... ماذا أيضًا؟ أخبروني بالله عليكم... ماذا أيضًا؟... أنا مُستغن عن تفاهة الحياة ودولاراتها فلست حيوانًا داجنًا يقبع وجوده خلف ما يرميه له مربوه من طعام يبعث فيه السمنة حتى أوان ذبحه وطبخه وأكله بمزاج آخر.

أمسك بالدولارات ورفعها عاليًا فتعلقت أنظار الجميع بها وتوقعات كثيرة تجايل طول المشهد المجسد أمامهم، والجميع يرى جادًا انتزاع ما بيده من حفنة الدولارات ذات الفئة المتواضعة «يك» والهرب بها بعيدًا في ظل فوضى وانهيار للقيم والقانون.

– سأنثر هذه اليكات وسط الجميع وليأخذ كل منا ما تلتقطه يده منها.

نثر ريسان ما في قبضته من دولارات، واشتبك الجميع بصراع حضاري مهيب في التقاط ما طالته يداه منها، حيث

كان نصيب ريسان يكًا واحدًا لا غير اكتفى به نظير أُجرة سيارة تاكسي حيث جسر السنك ينهي الحكاية هناك ويختتم فصول العذاب.

بعد أنْ دسَّ ريسان الدولار في جيبه وهمَّ بالحركة بعيدًا عن صراع الديكة اقترب منه الصغير صاحب الكُرة وهو يمسك بدولارين شبه ممزقين:

– عَفْيَه، سبع... شراح تشتري بيهم؟

– راح أشتري بيهم قرآن مثل قرآنك.

رمى الطفل كُرته في نفس مكان حلبة الدولارات ليتقافز الأطفال حولها كجراد منتشر محاولين الاستحواذ عليها بتكرار ما فعلوا مع اليكات وبنفس الطريقة الحضارية...

تركهم وابتعد شابكًا يده بيد ريسان فسارا سوية يضحكان بصوت عالٍ دعا الجميع لترك ما في أياديهم وتَحرّي متابعة مسيرهما الحثيث نحو المغيب.

– بدون استسلامنا للنوم... لا نعرف كيف يكون شكل الأحلام... لننام عميقًا.

– عالمنا بشع ... يخلو من الصباحات الجميلة التي تستحق من أجلها أن نستيقظ صباحًا.

– آسف أيها الموتى الأحياء... لقد خذلتُكم بتأخري عنكم طيلة عمر امتد لخمسٍ أخرى بعد خمسين سنة عجاف.

ثورة جمهورية

كان لي صديق اسمه «علي» من عائلة فقيرة جدًا، يسكن مع أب وأم مريضين في كوخ يرقد خفيفًا كريشة طير، غافيًا على شاطئ دَجلة، مادته الأساسية القصب والبردي، في مدينة المدن حاضرة التاريخ وشاهدة الجمال الماجدية.

كان صديقي علي سيّئًا جدًا في دروسه رغم ذكاءه وفطنته، ورغم طيبته وأخلاقه الحميدة. لذلك حَرَّضني مستواه الدراسي المتدني على سؤاله وتقصي حقيقة الأمر... أجابني سريعًا وبلا مقدمات:

– أنت أكثر الناس معرفة بعملي، فأنا طوال النهار مشغول ببيع الجرائد والمجلات.

– نعم شاهدتك مرة في شارع التربية وأنت تهتف بصوتك المتلاشي: جرائد، مجلات، الثورة، الجمهورية، ألف باء الوطن العربي. وعزمت على سؤالك حينها عن طبيعة عملك. ولكني نسيت ذلك في خضم انشغالات المدرسة ودروسها أن أستفهم منك الحقيقة.

– عند عودتي إلى البيت أرمي بنفسي وسط «الصريفة» شبه ميت بعد أن أعدّ الدراهم في يد أمي.

– ولكن العمل ليس عُذرًا، فكثير من التلاميذ يعملون ودرجاتهم جيدة، إلا أنت.

– ظروفي لا تشبه ظروف الآخرين، وكما تعرف فأبي عامل بناء تقاعد عن عمله بسبب سقوطه من سكلة البناء. وبيتنا «صريفة» تتعرض كل يوم لحريق يأكل جزءًا منها، أو لحماقة الطبيعة فتجرفها فنعيد بناءها من جديد وبتكاليف تجبرنا على تبني الجوع طويلاً.

تجادلنا كثيرًا عند هذه الجُزئية، وتناولناها بعقل ووعي أكبر من أعمارنا.

– هل تقبل التحدي؟

– أي تحدٍّ؟

– أن تصطحبني معك غدًا لبيع الصحف والمجلات... ونرى لمن الغلبة.

– وفي الامتحان يكرم المرء أو يُهان، كما يقول أستاذ «رزاق» معلم اللغة العربية.

بعد أن رنَّ جرس الانصراف بيد فرَّاش المدرسة خرجنا معًا من بابها متعانقين برفقة مجموعة من الطلاب وهم يرمقوننا بحسد على الحب الذي يجمعنا، حيث اعتدنا أن نغني أغنية سيتاهاكوبيان وسعدون جابر «نحب لو مانحب» ونحن خارجين... (نحب لو ما نحب يبو كَلب الرحب).

أغمز له بعيني فيجيبني مبتسمًا:

– الهوى من يخطي العيون... الهوى من يخطي العيون... يتلكَاه الكَلب.

نتكاتف أكثر ونحن نردِّد: « للا للا...للا للا».

استيقظتُ مبكرًا في اليوم التالي، وبنشاط الجندي المحارب ذهبت بصحبة علي إلى شارع التربية حيث المكتبات الرئيسية لبيع الصحف، ومنها المكتبة العصرية وصاحبها حيدر الذي كان يعطينا صحف الثورة والجمهورية والوطن العربي وكل العرب على طريقة التصريف بهامش ربح يُعدُّ محترمًا بالنسبة لطفلين... وما يفضل من الصحف لدينا نعيده قبل الظهيرة للمكتبة...

– جمهورية، ثورة، آخر جريدتين... عجِّل يا مثقف قبل النفاذ. إلحگ أبوية إلحگ.

وقفتُ قبالة مصرف الرافدين في السوق الكبير وأنا أنادي بصوت جهوري كان يحسدني عليه حتى «قدوري» مشجع نادي الشرطة. ومن خلال هذا الصوت ولجت المسرح من أوسع أبوابه فقد كان غاية أحلامي ومنتهى رغباتي.

– كذّاب... لا يزال لديك الكثير من الجرائد.

ابتسم بوجهي أفندي يرتدي بدلة أنيقة يبدو عليه أنّه معلم قديم. وهي صفة عامة للمعلمين في ذلك الوقت حيث يتصفون بالأناقة والاهتمام الكبير بمظهرهم وشعرهم وملابسهم.

– سأشتري منك جريدتين أيها المشاغب.

ناولتُه جريدتي الثورة والجمهورية، تأبّطهما مبتسمًا وغادرني مزهوًا كطاووس، وأخذ يمشي مصوبًا عينيه كمخلب دبٍّ في ثنايا الصفحة الأولى، مما أثار فضولي ومشاكسة روحي بسؤال تفجَّر في عقل طفل غرٍّ: (ما سِرّ لهفة هذا المعلم

لقراءة الجريدة؟ وأي خبر ممكن له أنْ يحوز على اهتمامه بهذا الشكل؟).

رفعتُ جريدة الثورة عن الأرض متطلعًا إلى حروفها الصغيرة: (سيادة رئيس الجمهورية والقائد العام للقوات المسلحة يهنِّئ الإمام الخميني لإعلانه الثورة المباركة في إيران)... تذيلتْ الخبر من أسفله صورة للخميني وهو يحيّي الجماهير في مطار طهران بعد نزوله من الطائرة الفرنسية التي أقَلَّتْه من باريس.

كانتا صحيفتا الثورة والجمهورية من الصُّحف المميزة والمهمة لدى القارئ العراقي لأنَّهما من الصحف الرسمية للدولة والحزب؛ هذا أولاً، وثانيًا لما تتضمنه صفحاتهما من موضوعات مهمة تدخل في صلب حياة المواطن، وفيها أبواب تهتم بشرائح المجتمع المختلفة والأهم ليس لها منافس أبدًا لطبيعة الحكومة والدولة وتوجهاتها الآيديولوجية.

مرَّتْ ثلاث ساعات وأنا أقف مزهوًا فوق كدس من الصحف والمجلات يعتريني فرح غامر بتجربة فريدة أعطتني شعورًا بأني إنسان مثمر.

طاف خيال أبي كملاك بجناحين من مصابيح فوق رأسي وهو يشد على يدي داعمًا وهو يبتسم لي ابتسامته المعهودة التي ما فارقت محياه طيلة عمر مرَّ بحلوه ومُرّه... أزاح هذا الطيف الجميل لأبي وجهُ رجل قاسي الملامح بشوارب كثَّة تهدلت على شفتيه وأخذت منحدرًا على جانبي فمه الأزرق الذي صبغته سجائر سومر المعروفة آنذاك:

– أعطني الثورة.

– ومعها الجمهورية أيضًا؟

قلتُها بابتسامة خبيثة لتشجيعه على شراء عدة نُسخ.

– لا... قلت لكَ أعطني الثورة.

– أستاذ الثورة رخيصة، والجمهورية رخيصة ايضًا.

اهتز شاربه بعنف، وحدَّق بي بنظرة غاضبة طويلة الأمد كدتُ على إثرها أن أفعلها على نفسي.

– والله... لولا عمرك الصغير لجعلت الثورة والجمهورية كفنًا لك، ابن القحبة.

لا أعرف ما الذي قُلتُه حتى يغضب مني هذا الرجل بتلك الكيفية. أطال النظر بوجهي، لملم أصابعه، وكوَّر قبضته، ثم أخذ الصحيفة دون أن يدفع ثمنها. أردت أنْ أجري خلفه أطالبه بالمبلغ، لكن منظر شواربه وهي تهتز شلَّ حركتي، فجلستُ قبالة الصحف وأنا متحسِّر على خسارتي ٢٥ فلسًا، لكنني استعدتُ ثقتي مجددًا بقدوم العديد من موظفي المصرف الذي أقف قبالته عند حدود شارع دجلة وهم يتسربون لانتهاء أعمالهم، فراح جيبي يشعر بالاختناق والانتفاخ لوفرة العملة الحديدية التي دسستها في طياته وأنا أواصل ندائي: جمهورية، ثورة، ألف باء.

تحقَّقت معجزة كبيرة ببيعي كل الصُّحف والمجلات، غبطني الجميع من زملاء المهنة لهذا الجهد والطريقة المثالية في نفاذها، حتى صديقي علي فرح فرحًا كبيرًا. وعندما عدنا لحيدر صاحب المكتبة فغر فاهًا لنفاذ ما لدي من صحف

فكافأني بـ ٢٥ فلسًا زيادة لربحي، ذكَّرني هذا المبلغ بجريدة الثورة التي اغتصبها مني صاحب الشوارب المعقوفة... وكم هي كبيرة رحمة الله عندما يحين نزولها.

– كم هو المبلغ الذي ربحته يا علي؟

– كثير... خير من الله.

– أنت تكذب عليّ يا علي.

فرّت دمعة ساخنة من عينيه كحبة لؤلؤ جعلتني أمسكه من كتفيه وأغرس نظراتي في تفاصيل وجهه صارخًا:

– علي؟

أجابني وهو يمسح دموعه:

– هذا يعني... أن لا عشاء سيجمعنا اليوم مع أبي وأمي.

جلسنا على مقدمة معدنية لأحد المحال في الطريق إلى منطقتنا لالتقاط الأنفاس بعد التعب المرير والكبير. أخرج علي كيسه الفقير من النقود بيد عاجزة مع شيء من الحرص، فالكيس بالنسبة له محفظة خاصة يضع فيها ما يتحصله من بيع الصحف... حاول إفراغ ما في الكيس من نقود وهو يقول:

– لم أحصل إلا على هذه التفاليس، وهذا ما لا يروق لأهلي الذين ينتظرون بقرتي الحلوب ما تدره عليهم من حليب طازج.

أمسكتُ بالكيس قبل أنْ يخرج ما فيه...

– سأخرج ما بجيبي ولتخرج ما بكيسك إخراج رجل واحد.

ضحك عليٌّ حتى انقلب أرضًا لأنني ذكَّرته بفيلم «الرسالة» الذي طالما شاهدناه على شاشة تلفيزيوننا أيام المناسبات

الدينية...

أفرغتُ ما في جيبي، وأفرغ ما في كيسه من نقود... عَلَتْ كومة معدنية كجبل صغير يسر الناظرين... اندهش عليٌ لهذا المنظر وقال بإعجاب:

– أتعرف يا صديقي... قد حصلتَ أنت على ما أشتغله في أربعة أيام متتالية.

– علي... أعطني كيسك، واذهب هناك راقب لنا الطريق خوفًا من مشاكسات الأطفال.

دسستُ كل القطع المعدنية في كيس علي حتى امتلأ عن آخره، وأبقيت قطعتين لي كانت لهما خرخشة في جيبي، وهو المطلوب حتى لا ينتبه علي بأني وضعت النقود كلها في كيسه فربما يرفض اعتزازًا... نظرت جانبًا فوجدت بعض الحصى الصغيرة، التقطتُها ونفختُ بها جيبي حتى تصبح القصة أكثر إقناعًا... حرَّكت قدميَّ باتجاهات مختلفة لاختبار رنين القطع النقدية مع الحصى فكانت النتيجة مذهلة...ناديت على عليٍ بأنني أتممتُ القسمة:

– خذ يا علي هذه حصّتك.

– ولكن هذا كثير.

– خذ، أهلك بانتظارك، وأخوتك الآن يقتات الجوع على مصارين بطونهم.

تحوَّلت عينا عليٍ إلى قطعة دم وأجهش بالبكاء... التقطتُ كفّه الأيمن ووضعت الكيس فيها وكوَّرت أصابعه بقبضة ملاكم.

– والآن حان موعد ذهابنا كلٌّ إلى بيته.

– والرهان؟

– هو من نصيبك

مرّت أيام الدراسة سريعًا، ونجحنا، ونسينا الرهان وتفاصيله، وانتقل عليٌ إلى منطقة أخرى بعيدة جدًا منعت تواصلي معه مما قرّح فؤادي وقتل ذكرياتي بسكين صدئة، والسبب في انتقالهم هو عملية الترحيل القسري التي مارسها أصحاب الشوارب المعقوفة حيث أزالوا بيتهم، عفوًا كوخهم، أو صريفتهم، سقف من قصب كان يقيهم بعض الشيء من شمس لاهبة وأمطار غزيرة لا ترحم... وقبل إزالة معالم سكنهم أمروهم بالمغادرة فورًا.

لكن المصيبة في الأمر أنهم بنوا على أنقاض هذا البيت الموجوع فرقة حزبية أكلت كثيرًا من جرف الحياة لأبناء الماجدية، والأشد إيلامًا أنها حرمتني من صديق طفولة يتهادى في مشيته كنهر دجلة حينما ينحدر صوب البصرة وهو يعلم أن موته في متاهات البحر ماءً مالحًا.

تسع سنوات مرَّت وأنا أُجدِّد خساراتي بفقدان صديق بموت عادي، أو موت في جبهات القتال الطاحنة للإنسانية ومع كل صرخة حزن أطلقها جزعًا على من فُجعت بهم من الأصدقاء أغلفها بلعن صدام والخميني حتى أصبح اللعن ثقافة لي.

انتهت الحرب، أعلنها صدام بيانًا للبيانات بلكنة الانهزامات، وأعلنها الخميني مُتجرِّعًا السّم الزعاف لنهايتها

القسرية... وما بين إعلان هذا وبيان ذاك استبدَّ العوق في أرواح المواطنين، وفاحت رائحة عفن زوجة الشهيد، وانتشر الأيتام تحت أمرة القوَّاد والميكانيكي والسائق، وما تفتق عنهم من مِهن تنشر الإذلال والتصاغر والانحراف.

استيقظتُ صباحًا، وعلى عجل توجهتُ إلى السوق لشراء جريدة الجمهورية أو الثورة للحصول على معلومات أكبر لنهاية الحرب... وفي طريق سيري ناحية مكتبة حيدر لشراء الجريدتين جذبني عند نفس موضع تجربتي الوحيدة في بيع الجرائد، ثمة صبي بعمر الثامنة وهو ينادي: (ثورة، جمهورية، آخر جريدتين، عجّل يا مثقف، الحكَ يا متعلِّم).

استفزني هذا الصوت والطريقة التي ينادي بها ووقع الكلمات التي كانت من تأليفي...

– رُبَّاه من عساه أن يكون؟ إنه يذكرني بطفولتي وكأنّه أنا... هل ممكن أن يكون الشبه إلى هذا الحد؟... كأنني أعرفه منذ آدم، ونوح، وشيت، وصالح، وعلي بن أبي طالب...

سؤال أوجع قحفة رأسي: من عساه يكون؟

أقتربُ منه وأنا أشبه بطائر يطير بلا جناحين إنما هواجسه هي من تطير به:

– أعطني الجمهورية.

– ومعها الثورة؟ الجمهورية رخيصة، والثورة هم رخيصة.

صعقتني كلماته... تلفتُّ حولي بعينين من وجل...

– إياك أن تكرِّر ما قُلته لأحد آخر... أفهمت؟... ما اسمك؟

تردَّد في الجواب وهو يناولني الثورة والجمهورية:

– كاظم.

أول الغيث قطر، اسمه يواطئ اسمي... شعرت براحة وأنا أنظر إلى عينيه العسليتين... أعطيته مبلغ الجريدتين.

– أتعرف يا ولد، اسمي كاظم أيضًا.

استبشر كاظم الصغير وتهللت أساريره:

– كان أخي يحدِّثني عن صديق له، اسمه كاظم... كان يحبه جدًا.

– هل تعرفه؟

– من؟ كاظم؟ لا... بعد أن ترك أهلي بيتهم.

توقَّف عن الحديث وهمس بصوت واطئ جدًا يكاد لا يُسمع:

– طردنا الحزب من بيتنا في الماجدية.

– وما اسم أخيك؟

– علي.....

تَطوّحتُ قليلاً لسماع الاسم، وكأن الولد قد أمسك بسوط من مسامير فأثخنني بالجراح، وراح يجرني في أزقة المدينة زقاقًا بعد زقاق، حتى عاد بي إلى موضعه أمام الجرائد.

استعدتُ بعضًا من توازني وتركيزي بعد أن سلَّم عليّ أحدهم.

– العب بيها انتهت الحرب!!!

في إشارة منه إلى أنّ الحرب لن تطالني، وهو لا يعلم أن

هناك قوة قهرية تحفِّز هرمونات خاصة لعجن أرواحنا في حنين مفرط لتذوق طعم الحروب التي نهشت أهلينا، فبات الفضول يتقمص تطلعاتنا لاستشعار معنى الحرب وتوقع ولادة أختها...

– وين هو علي هسه؟ بيا منطقة؟ شخلص من دراسة؟ أريدك أن تأخذني له.

– وين آخذك؟ للنجف؟.

هنا دقَّ أحدهم مسمارًا في قدمي اليمنى، وألفًا في اليسرى، وفقأ الآخر عينيَّ، وانتزع قلبي ثالث وهو يفري أنسجته بشغبِ مجنون...

– ليش؟

فرَّتْ من عينه دمعة تدحرجت ككُرة بقفزات متعددة ذكَّرتني بدمعة علي لحظة اقتسام ما حصلنا عليه من بيع الجرائد في يوم يطرق بشدة على ذاكرة نديّة أحسستُ بحرارتها وهي تنطّ على وجنته الملوحة بشمس خائنة.

– أُستشهد قبل أسبوع، والبارحة رفعوا الجادر.

كل شيء فيَّ مُخدَّر إلا من مجدٍ زائف... أرى الكون بعين مثكول وهو يمشي على عكازتين أكلتهما الأرضة حتى سقط فسقط كل شيء.

– عمو: منو أنت؟

أخرجتُ ما في جيبي من نقود بيد مرتبكة ترتعش كسعفةِ نخيلٍ في يوم عاصف فسقطت قطعتان على كومة الجرائد

أشرت له بفتح يديه... وضعت حفنة النقود في يده والتقطت القطعتين...

– هذه حصتك وهذه حصتي.

– أستاذ، منو أنت؟

– سنلتقي هنا أليس كذك؟

– منو أنت... أستاذ؟

– ستعرفني عندما تزور أخاك علي، وهو من سيخبرك.

قَلَّبْتُ القطعتين النقديتين في يدي، دسستهما في جيبي مبتعدًا وأنا أمسح دمعي بظاهر كُم قميصي كالأطفال... مردِّدًا دون كتف يلامس كتفي كما هي عادتي في السير بصُحبة علي:

– نحب لو ما نحب يا ابو كَلب الرحب... الهوى من يخطي العيون... الهوى من يخطي العيون يتلكَاه الكَلب ... للا... للا للا للا.

الشروكي

تأخَّر التحاق طلبة الجامعات بدراستهم في آخر حبّةٍ من عنقودِ زمنٍ مُرٍّ لسنواتِ حرب ثمانية أكلت أخضرنا ويابسه حتى وقت متحايل تجاوزَ شهرَ تشرين الثاني، وهذا ليس بالمعتاد في عُرف التعليم العالي (ولو عُرف السبب بطل العجب)، وكل ذلك بسبب زجِّ هؤلاء الطلبة في العطلة الصيفية بمعسكرات الجيش الشعبي لإعدادهم للدفاع عن الوطن في حرب تافهة يدعي الطرفان عدالتها، وهي محاولة جادَّة لعسكرة الشعب أو بالأحرى محاولة لسع قفا البعض من هؤلاء الطلبة وعوائلهم بمضايقة من نوع خاص ترضي طموح القيادة في الهيمنة، وتشيء المواطن، وتشتيته، وتحجيمه.

كانت فترة عصيبة عليَّ لأكثر من شهرين عشتها متقلبًا كَحَبّاتِ بُنٍ على صفيح ساخن، أنتظر بفارغ الصبر وجنونه لحظةَ عِتقنا من هذه الفعالية السخيفة، وفكِّ أسرنا، وأمرٌ يُبدِّد قلقنا بتسريحنا كُلٌّ حيث كُليته وجامعته، فالشوق أكل المتبقي من ظلي... شوق عارم لفاتن زميلتي شبيهة الممثلة «إيمان الطوخي» التي أسرتني حُبًّا وهيامًا طيلة ثلاث سنين عشتها بصحبتها في كلية الفنون، فقد جمعتنا أجمل اللحظات ونحن نتبادل نظرات الإعجاب في الوهلة الأولى لِحِصَّة دراسية، هذه الحصة التي ما زالت تعتاش في دوامها كفيلم سينمائي خالد بالأسود والأبيض على بقايا روحي،

وكأنَّها طاقة مدورة محيطها أناي وروحي لا زيادة ولا نقصان بطريقة الأخذ والعطاء المتبادل، حتى استوثقت عُرى الحُب بين قلبينا وأصبحنا حديث الساعة لجميع المراحل الدراسية في مدى إخلاصنا لبعضنا... ونتيجة لهذا الحُب المغاير بات كلانا خارج مشاكسات الجنسين من زملائنا في إقامة علاقات حُب مؤقتة أمدها الأربع سنين، فهناك فيتو مُعلن من عمادة الكلية وطلبتها بعدم الاقتراب منا ولو همسًا، مما وَلَّدَ يقينًا شبه تام لدى الجميع بأننا خارج معتقدات الآخرين من زملائنا في حصر تعاطيهم مع حبيباتهم في حدود المحاضرات وأيام الدراسة لا أكثر، وبعدها النسيان لأوثق العلاقات... فقد كنت دؤوبًا على الاتصال بفاتن طيلة العطلة الصيفية وما ارتحل يوم من روزنامة حياتنا دون حديث تطول مُدته من على الهاتف الأرضي خاصتنا في أيام تواجدي بين أهلي... أتخيلها أمامي وهي تُدني سمَّاعة التليفون من أُذنها الناعمة والابتسامة تتألق عند حدود وجهها الدائري المتورد كَحنّاية خبز نضجت في تنور طيني من صنع أُمي، تتوسط أسفل جبهتها عينان كساعة جدارية كبيرة تشبه إلى حد بعيد عيون قطتنا الخضراء، وأنف ناعم تدلى عند فمها، وكما تصفه أمي وهي تقول مسترسلة بوصف جمال واحدة من بنات أختها المرشحة للزواج مني: (خشمها طايح بحلكَها).

لم يكتفي الرسام الكبير الذي أتقن صنع جمالها بهذا القدر من الجمال والفتنة، بل امتد بتقنيته المغايرة حتى حدود فم صِيغ بعناية يتقاطر من شتى تضاريسه الشفَّافة رحيق ورد تراكم وسط شغاف وردة في صبيحة يوم ربيعي مشرق وهو

يتلو حروف حُبٍّ بقداس تخشع له القلوب وتتخدر الأطراف أمامه بِسِنَةٍ من غرام، وخدود تشكَّلتْ كتفاحتين حمراوتين يرافق حضورهما وجودٌ ساحرٌ عند متاهاتِ قُبَلٍ بريئة شفافة تشي بانفجار هائل.

وكل ما ذكرته من جمال أبجديات وجههها فقد كان يتوسط شَعرًا عائمًا كليلٍ بهيم يجيد الرقص حول قمرٍ مغناج زادته جمالاً نسمات عذبة تلاعبت بخصلاته يمينًا وشمالاً، ورقبة كإبريق فضّة تتقاطر خمرًا متمايلة كمركب بلا شراع مكث طويلاً على شاطئ غرام في ليلة هادئة الأمواج.

لا أعرف ما الذي أثارها فيَّ لتبادلني الحُب وبنفس القوة؛ وربما أكثر؛ رغم أني كنت وما زلت أجلحًا أملحًا وبشهادة أقرب المقربين وأبعدهم، لكنَّها كانت ترى في سُمرة وجهي الحنطي واستدارة لحيتي وكثافة شواربي ملاذًا لذوقها وشغفًا لقلبها وأسْرًا لروحها، فضلاً عن ثقافتي التي تستشهد بحضورها فيَّ كصفة مغايرة أمام الجميع.

وبعد عودتنا المعتادة للتجوال في رياض كُليتنا في المرحلة الرابعة والأخيرة وانتهاء محنة معسكرات الطلاب الشوفينية جرت بيننا ثمة لقاءات جمعتنا خارج أسوار الكلية، بعيدًا عن أنظار زملائنا المتطفلة في محاولة لردم هوة البعد القاتل وآثارها المحبطة التي عانينا تفاصيلها كثيرًا طيلة أيام العطلة الصيفية.

انتزعتُ خجلي المعتاد ورميتُه في بحر منسي، وإلى غير رجعة، مع ورقة كلينكس زفرتُ فيها مخاطًا كان يُحجِّم حروفي بعد

إحساس بنزلة برد مفاجأة، وانطلقت كميزاب سطح مَنزِلنا ساعة مطر كثيف وَبُحْتُ لها بمكنون قلبي المتداعي أمام سِحر عينيها وبما يسكنه من شغف لها، فلم تتدخر هي الأخرى كلماتها الحماسية واعترافاتها المجنونة التي لم تكن تخجل منها ومدى انجذابها نحوي بشكل وصفته كحبَّة الفاليوم للمريض حيث لا ينام ولا يسكن وجعه إلا بتناولها، وهكذا هو دأبها كل ليلة حيث لا تركن جفونها لمغازلة النوم حتى تَتَطَّلع مليًا في صورة جمعتنا أنا وهي مع زملائنا اُلتقطت لنا في المرحلة الاولى من قبل مُصوِّر الكلية، وتقف هناك أمام مرآتها عارية بجسدها البض كحليب، تتحسَّس مفاتنها بيدين تخيلتهما ملمس أناملي وهي تراني بكامل فتوتي وشبقي حتى تسقط مغشيًا عليها دون حراك ومياه نشوتها تتفرق كحبات رمانة تفجرت آهاتها بعنف لذيذ.

كنتُ سريعًا في كل شيء؛ إلا قيادة الدراجة النارية؛ لذلك باغتها بجُملة وضعت النقاط على الحروف وأنا أضغط على شفتين يبحث صاحبهما عن إجابة ناجعة.

– فاتن؟

– عيون فاتن.

– أحبج.

– حبيبي، وآني همايتين وأكثر منك... هاي نعرفها من المرحلة الأولى احچيلي شي جديد.

قالت جُملتها وابتسامة عريضة أخذت كامل استدارة وجهها مع حركة بيدها أرْخَت سدول شعرها الفاحم على صدرها فتشكَّلت أمامي لوحة موناليزا جديدة وبألوان فاتنة

لم تمر عليها ريشة فنان. وَبَّخْتُ نفسي لهذا الإحساس الماجن وقلتُ لها:

– آني ما أحب اللف والدوران

– واني ما أحب المسافات الزايدة، أحب الطريق العدل والمباشر والخط المستقيم، فأقصر طريق بين نقطتين هو الخط المستقيم.

– بس هنّه شلون نقطتين يخبلن.

ضحكنا كثيرًا، وعُدنا بالذاكرة لمرحلة المتوسطة، والإعداية، ومادة الرياضيات، وقوانينها الهندسية، وذكريات أساتذتنا في هذه المادة، ورُحنا نُقلِّد طريقتهم في الحديث، وما هي القفشات واللحظات الكوميدية التي جمعتنا بهم.

مسحتُ دمعة فرَّتْ من عيني بسبب الضحك والبرد، فبادرتْ هي الأخرى لانتزاع كلينكس تحتفظ به في حقيبتها الوردية الصغيرة ومسحت به فاضلَ دموعِ عينيها.

– إي وبعد حبيبي؟ أحس بيك عندك حچايه تريد تگولها.

كانت ذكية تقرأ كل ما يجول في خاطري، وما رقص من فيض كلمات على لساني.

فكَّرتُ قليلاً وأنا أتطلع حولي في وجوه الزبائن وكأنني خائف حذرَ سماعهم لما أقول... صوت داخلي يحرِّضني: (لا تتردد... كل شيء يسير بالاتجاه الصحيح... گرانديزر... اِنطلق).

– فاتن: گلتلج ما أحب اللف والدوران، إحنا گضينه أيام الگُلية كلها نحب بعض... فلازم تتكلل نهاية حُبنا بالزواج... تتزوجيني؟

– هسه؟

– لا، من نتخرَّج.

– فاجأتني حبيبي.

– فاتحي أمچ اليوم، وكَليلها: زميلي بالكلية شاب من أهل العمارة طلب إيدي... بس لازم تكَليلها حقيقة حُبنا.

في اليوم التالي قَدِمْتُ مبكرًا إلى كافتيريا سياحية لا أتذكر اسمها تقع في باب المعظم قريبة من ساحة الميدان تقف قبالتها دائمًا الأمانة أم الطابقين المتجهة لساحة النصر ذات الرقم (٥) حيث تغيبتُ عن المحاضرات في الكلية لهذا اليوم لغليان الشوق في روحي منتظرًا فاتن وهي تقول لي محتضنة رقبتي من الخلف كعادتها عندما نجلس في باحة الكلية:

– أهلي بانتظارك.

أتت فاتن متأخرة كثيرًا عن موعدنا، فأنساني أحمر الشفاه الذي أورق فوق شفتيها عن توبيخها لهذا التأخير غير المُبرَّر.

– آسفة حبيبي... تأخرتُ عليك... ازدحام اليوم.

تناولنا الطعام سوية بطُرق رومانسية، مرة أضع في فمها قطعة من كيك يسمونه المصريون «كَاتوه»، ومرة تسقيني شيئًا من عصير البرتقال الذي أستعذبه كثيرًا.

وبعد نظرات متبادلة بيننا طال أمدها وأنا أتجول سائحًا في ملامحها وقلبي يكاد يفر قافزًا من بين ضلوعي كلاعب للوثب العالي، حتى أخرَسْتُ صمت لحظاتنا وقلتُ لها وأنا قابض على يدها أمرِّر سبابتي فوق ظاهر أناملها بمداعبة أرغمت فتاة تجلس على طاولة بجوارنا برفقة حبيبها كي تمدَّ

يدها متعمدة غائبة في يده التي أحدث فيها عمل ما الكثير من الجروح والخدوش...

- فتونتي بلغتي أهلچ؟

- ها... إي طبعًا

ابتسامة من قِبلي قابَلَتْها شفتاها بابتسامة ويدها ما زالت تختفي باستسلام بين راحتي يديّ...

-وشكَالو؟

سحبتْ يدها سريعًا بخجل مصطنع وقالت بعد تردد طويل حسبتُه عُمرًا ناهز عُمر نوح وبقية رفاقه المعمِّرين:

- رفضوا

كلمة تتدثر بالظلام تفجَّرتْ من بين شفتيها، هنا؛ وهنا فقط؛ أحسستُ كأن أحدهم أطفأ أنوار الكافتريا، فسادَ المكانَ ظلامٌ دامس حرَّض ظلامًا آخرَ ليغمد سكينًا حادة في أقاصي روحي...

-ليش؟

- كَالووو... كَالووو...

حاولتْ أن تُجَمِّلَ عبارتها بوسائل شتى لكنّها فشلت، فاستسلمتْ أخيرًا لتقول بجدية واضحة هي مسؤولة عنها وهو رأيها المُحَدَّث توًا عهدته فيها كثيرًا في مناسبات سابقة حينما تتوقف قسمات وجهها عن اظهار ابتسامة ما:

- كَالو ما ترهم أبد... أنتِ كَرة عينا، وبتنا الوحيدة... شلون تتزوجين شروكَي، شتكَول علينا الناس، مضحين ببنيتنا؟

هل أنا في حلم أم في يقظة؟... هل هذه فاتن بحق؟... ربما امرأة أخرى... دعكتُ عيوني بظاهر يدي وتَفَرَّست بوجهها مليًا... نعم هي فاتن... صرختُ بوجهها؛ مما أثار انتباه من جاورنا في طاولات الكافتريا من سلسلة طويلة من العُشَّاق:

-شروكَي؟ شنو شروكَي؟

-ما أعرف.

-إي غير أفتهم شنو شروكَي؟

-ما أعرف... كَوتلك ما أعرف.

-زين شنو رأيج بالموضوع؟

- دايخة وما عندي حل... حبيبي آني تأخرت، وصلني للبيت عفيه.

وفي سيارة التكسي وهي تقلنا إلى شارع فلسطين الذي تسكنه أغلبية غنية وبمناصب حكومية رفيعة حيث بيت فاتن حبيبتي ابنة العميد الرُكن!!! تشجَّعتُ وسألتُ السائق الكبير في العمر في محاولة محفوفة بالمخاطر في مثل هذه الأيام التي يغلب فيها رجال الأمن وهم يعملون في سيارات الأجرة:

-حجي... شنو شروكَي؟

ارتبك السائق قليلاً وكاد أن يرتطم بالرصيف لولا احتياله بعقل جنٍ على القدر بالتمسك بقوة بمقود السيارة، وتلمَّظ بشفتين صبغهما دخان سجائر محلية بدا مع هذا الموقف عطشًا وكأنّه خاض طويلاً في أرض لا زرع فيها ولا ماء:

-شنووو؟

-إي حجي... شنو شروكَي؟

-أنتَ منين؟

-من العِمارة.

تنفَّس السائق المُسِّن صعداء الموقف وشعر براحة كبيرة بعد أن ساد ثمة اطمئنان بين حنايا قلبه، وأطلق بعدها ضحكة مدوية حملتني تساؤلات أخرى فوق عديد تساؤلاتي لما أقدمت عليه فاتن التي أرْخَت عَيْنَيْها إلى الأرض وأمسكت عن الكلام والحركة...

- ولو آني مأعرف شنو السالفة، بس انت سألتني وعليَّ الجواب... بويه هاي التعلوكَة ماشية عند أهل بغداد وأنت صاعد... معناها شكو واحد من العمارة هو شروكَي... والشروكَي يعني مثل الشتيمة. بدل ما تكَول لواحد تكرهه: (كلب ابن كلب) تكَله (شروكَي).

غلى الدم في عروقي وفقدتُ الإحساس بمن حولي سوى فاتن التي التفتْ ناحيتها بعين شزرة متسائلاً، فنهرتني بإجابة من رأسها علامة تأكيد لكلام السائق الذي لم يكن رجلاً للأمن بل رجلاً من عامة الناس متصالح مع الحياة خبيرًا بها.

-يعني تعرفين معنى الشروكَي؟

-.....

-حجي هنا... وصلنا... أوكَف هنا.

توقَّف السائق على الجانب الأيمن وسط شارع فلسطين قريبًا من القصر المنيف حيث تسكن فاتن وقد التفتَ ناحيتنا ليرى نتيجة ما فجَّره من قنبلة رماها دون وعي بأصل الحكاية محرِّضًا أناتي وتحريك لساني محادثًا فاتن بشيء من الجفاء

والقسوة:

– وشنو قرارچ؟

– .....

ثارت ثائرتي وأنا أرى عجزها عن النطق والدفاع عن حُبنا ولو بكلمات تسخر من سذاجتي كطفل يقنع بأي لعبة أو حلوى ترمى له...

– انزلي.

تفاجأتْ فاتن بنبرة صوتي وأنا أنهرها بكلمة (انزلي) التي اندهش لها السائق هو الآخر وراح الاثنان يصفعان وجهي بأسئلة عديدة طلبًا لحل هذا النزاع السخيف...

– كَلتلچ انزلي

سقط في يدها وهي تنظر للسائق راجية بكلمات لفظها الموقف المحرج الذي مرَّت به وهو يهرسها كتفاحة في خلّاط (عمو ليش هيچ؟) أجابها بصمت قتلها وهو يبعد وجهه عنها هربًا من إلحاح نظراتها الباحثة عن تفسير لما يدور حولها بادعاء جهل فاضح.

ترجَّلتْ من السيارة كَكومة ملابس فاخرة يتجوَّل في تفاصيلها الهواء وهي تنتظر مني ابتسامة وقُبلة هوائية كالعادة، ولَمَّا لم تعثر عليهما لديَّ وأنا جالس خلف السائق بنظر مستقيم، تَسمرتْ حينها في مكانها على جانب الرصيف كعمود إنارة مهمل يجلدها المارَّة بنظراتهم الموبِّخة والدهشة تقتل بريقها الذي طالما سحرني... صرختُ بالسائق حينها أحثُّه على مغادرة المكان:

-حجي... حَرِّكْ رحمة لأُمك.

- وين بعد عمك؟

- لمدينة الثورة.

فهم السائق كل الحكاية، فراح يصفِّق فرحًا، بينما سيارته تبتلع الشوارع واحدًا تلو الآخر باتجاه مدينة الثورة.

-عفيه ابن أخوي أريدك أنشط.

ضحك بأسنان بانت قسوة الحياة معها فاجتثت ما طالته منها، فشاركتُه ضحكاتَه وفرحَه فشتمتُ التاريخ، والوطن، والحُب، والحرب، والريِّس، ولم أنسَ شارع فلسطين طبعًا.

انطلق السائق بنا بسيارته الـ«السوبر» كسوبرمان مُحلِّقًا فوق دور الثورة المتكاثفة كأغصان دَوْحَةٍ كبيرة تعيش غزلاً من نوع خاص فيما بين فتوق شوارعها وهي تسبح في ثنايا بعضها، حتى حَطَّت عجلات الـ«لادا» في «سوق العورة».

- هنا... نازل حجي؟

تحسَّستُ تفاصيل بدني، لم أفقد الكثير مني، فثمة إنسان بكرامة عَلَت هامته التي طالما ناطحت نجومًا سماوية شاهقة... وهناك لم أعد أتذكر شيئًا، فنسيت ذكريات أربع سنين بجميع أحداثها، وشخصياتها، وأماكنها، ولسان حالي يقول: (إسقاط الإضافات من الكمال).

ساعة الصفر

تكرَّر استيقاظ الطفل «عادل» صاحب الثمان سنوات فزعًا لثلاث مرات متتالية طيلة ليلة واحدة، مما دعا أباه «أحمد» اللاجئ السياسي العراقي في ألمانيا على تقاسُم الفِراش معه في قابل الليالي بغية منحه بعضًا من الطمأنينة والنوم بشكل مُريح، وفقًا لما نصحه به الطبيب في وجوب الاهتمام بمرافقة الطفل في نومه فثمة ذكرى حزينة تراوده تقتات بشراهة كحشرة ضخمة على لذيذ منامه وطفولته البريئة.

كما خطرتْ في بال أحمد فكرة أن يحاكي الماضي ويصنع كما كانت جدَّته أم أبيه تصنع بتعاطيها معهم بقصص ترويها كل مساء كان لها أثر إيجابي في نفسه هو وأولاد عمومته، فراح يقصُّ على ولده عادل حكايات حقيقية مَرَّ بها وعاش تفاصيلها في تليد أيامه الذاهبة في الرذاذ، فبادر لوضع رأس الطفل في حضنه وانطلق ميزاب حكايته وهو يمشِّط بأصابع من حُب شعره الذهبي الناعم، فاستسلم عادل بين يديه صاغيًا.

في مثل هذه الليلة، وبنفس التاريخ من سنة ١٩٩١ لشتاء مُلبَّد بالقلق والتوقعات، وفي ليلة لا تشبه ما سبقها من ليالٍ كانت قد مضت على استحياء عاشها أحمد بمجمل تفاصيل

جنونها طفولةً وشبابًا؛ كان أسير أربعة جدران في غرفة قصية من بيتهم في منطقة «عواشه» في «العِمارة» متسمرًا كتمثال سومري أمام التلفاز يتابع بترقُب ما تعرضه شاشته الفضية من لقاءات ميدانية للرئيس وهو يتجول رهوانًا بين قطعات جيشه كنحلة عزفت عن الرقاد... تابعه أحمد بتمعُن تفكيكي ناشبًا عَيْنَيه في خبايا روحه بفضول كبير رغبة في أنْ يُفكِّك شِفرة ما يعتمر قلب هذا الرجل الغامض الذي يرى أنّه قد صنع حياته وحياة الملايين من أقرانه طيلة فترة حُكمه...

حاول أنْ يحيط علمًا بماذا يُفكِّر؟ بما يؤمن؟ وما هي توقعاته لما سيحدث بعد قليل على أعتاب منتصف ليلة مغايرة بكل شيء؟ وما الذي دعاه ليخوض حتى الحزام في مستنقع الكويت، وسلسلة حماقات أجهضت كل أحلام الشبيبة في حياة رغيدة؟ وكل ذلك من خلال الغوص بعيدًا في عيني هذا الكائن الأسطوري الذي اسمه «الرئيس».

لكنَّ أحمد أكتشف أنَّ عيني هذا الرئيس هما من كان يترصده خلف الأكمة ويسحبانه بعنف شديد عند منصات الجنون وهما يبلعان العالم اتساعًا، حتى سقط مستسلمًا، منجذبًا لفخاخهما كطير تقوده قدماه بدعة وسلام حيث عشَّه الذي خبره طيلة عمر بأكمله.

حاول الهرب من وهج لمعانهما كقطٍّ احتواه كيسُ صيَّاد ماهر كنوع من ادعاء المقاومة وسُبل الحرية، فألفى نفسه عاجزًا عن الحركة، فقد كانتا عينين بوهج ذي حبال طويلة تقهران ظلمة الليل الذي كان يحتمي به هو ورفاقه وهما يلثمان ملمس رقبته خنقًا.

خَرَّت أوصال قواه رُعبًا لذيذًا وهو يضغط على حافة الأريكة بيد مُخدَّرة بقوة هشَّة، تلك الحافة التي استهلكت لكثرة ما ضغط عليها بكامل قوته لحظة متابعته هجمة فاشلة للاعب «حسين سعيد» في آخر خسارة للمنتخب الوطني أمام قطر في تصفيات كأس العالم التي احتضنتها بغداد الثكلى، حيث تشبَّث بها مخافة أن يجد نفسه وقد سُحب داخل الشاشة ليواجَه بتهمة الخيانة العظمى لأنَّه حاول أنْ يتجسَّس على مكنون ذاته بلحظة حماقة... لكنَّه تنفس الصعداء حينما وضعت زوجته استكان الشاي أمامه وهي تقول:

– هذا آخر استكان چاي أصبَّه إلك، لأن خلص چاي الحصة التموينية.

تلقَّف استكان الشاي من يدها على عجل، فاندلق على دشداشته البيضاء بعضٌ منه، لم يأبه بذلك، ودفع بقية الشاي في جوفه دفعة واحدة، وتبسَّم في وجها شاكرًا لأنَّها حرَّرته بهذا الاستكان لعدة ثوان قصيرة من بين قبضات يد مفتولة العضلات تركت آثارها واضحة على رقبته الغضَّة الطرية... وبمحاولة منه لطمس تلك الآثار بشيء من الخوف الماكث في أعماقه وبحركة ساذجة؛ رفع عاليًا ياقة معطفه الذي يرتديه فوق دشداشته فبدت علامات الدهشة والاستغراب تتجوَّل في وجه زوجته «هدية» وهي موزَّعة بعينيها المتلفعة بعديد أسئلة بين حوارات الرئيس مع جنوده من على شاشة التلفزيون وهو يستنهض هممهم، وبين عيني زوجها الشاخصتين القلقتين وهي تصرخ: لا مساس.

– حبيبي اشبيك؟... چنَّك مو على بعضك؟

رفعتْ استكان الشاي عن الأرض، ومسحتْ ما سقط منه على سجادتها الإيرانية الأثيرة على مزاجها وقلبها، تجاهلت ما لحقها من أذى نفسي وهي ترى أشياءها العزيزة وقد تحوَّلت إلى نفايات بسبب حماقات زوجها احترامًا له، وانتظار إجابته على سؤالها. لكنَّه خيَّب ظنها وواجهها بصمت حجارة طالما ثرثرت بشج رأس وإصابة هدف بحروف تحسَّستها عند متاهات قلبه المرتجِف، تَرجمتْها درايتها المسبقة بزوجها فكان ردًا من نوع آخر...

– الحُرية التي كنا نحلم بها باتت أمرًا مستحيلاً... متى كنا على بعضنا وأرواحنا كحبَّات الذرة تتفرقع في آلة صنع الشامية، كيف نكون على بعضنا وأحلامنا سرقها غراب يلبس الخاكي بمعية الزمن في مخيمات الطلائع والفتوة؟ أملنا بحياة أفضل، بحُرية أكبر أمل مخدر، لن يلبث أن يعطب ويصيبه الشلل.

تحرَّكت شفتاه عنوة في محاولة لإبراء نفسه من جنون تأكده معتقدًا أنها تيقنته فيه... جنون سيحرق الأخضر واليابس في هذا البيت الوديع كحمامة.

– شوفي وأنتِ تعرفين.

رفع رأسه مُشيرًا لها باتجاه الساعة الجدارية التي كانت تشير للساعة الثانية عشرة ليلاً، فتابعت نظراته حيث الساعة، لكنَّها واجهته بسؤال كشف عن عدم مبالاتها في محاولة لإستفزازه بشيء من الكوميديا لتخفيف ما لازمه من احتقان روحي:

– نو يعني؟ واذا باثنعش؟

ذكَّى سيجارته وسحب من جمر وهجها نفسًا عميقًا وابتلعه دون أنْ ينفثه، ثم أطفأها بهستيريا بالغة في ذبالة استكان الشاي الذي مازال يتوسط الصينية التي استقرت بين يديها وهي واقفة كَطَوْدٍ شامخ فوق رأسه تنظر إليه بابتسامة ساخرة ألهبت جنونه، ففتح عينيه على اتساعهما وصرخ بها.

– اتشوفين هذا المصباح؟ اتشوفين هذا التلفزيون؟ اتشوفي هاي الثلاجة؟

– شايفتهم.

– ولچ بوش وربعه راح يضربون مصادر الكهرباء كلها وراح تتعطل حياتنا... ولچ هديه راح نرجع لعصر ما قبل الحضارة.

انتهت مهلة أمريكا بمعية كل أصناف الطُغيان البشري السافل للعراق وصدام عند منصات منتصف ليلة الخامس عشر من كانون الثاني لعام ١٩٩١، وقد مَرَّ ليلتان على ذلك وستحل الحرب العالمية الثالثة وستنتهي معها حكاية رابع جيش في العالم... لكنّ صدام وحزبه رفضوا بإصرار عجيب أثار تساؤلات عدة لدى الجميع أي انسحاب من الكويت تلك الدولة التي تحولت بين ليلة وضحاها إلى المحافظة التاسعة عشر للعراق بفضل رؤى جبروت حسدت براءة فرعون والنمرود أمامه.

علا بكاء عادل ذي السنة اليتيمة بطريقة مخيفة دعت «هدية» للهرولة حتى مهده يحدوها قلق كبير مخافة اختناقه

بقنينة الحليب التي أعدَّتها له قبل أن تأتي بالشاي لزوجها «أحمد» كما حصل له قبل أيام لولا رعاية الله، حيث وجدته هذه المرَّة وقد رمى القنينة بعيدًا وغرق في موجة بكاء اكتشفتْ سببها من وحي خدٍّ متورم استجابة لِقَرْصَةِ بعوضة سخيفة بانت مشاكستها له من خلال نقط حمراء توزع حضورها في مساحات خدَّيه المضيئة كمصباح، والتي عكست كبيرَ ألم اعتراه وسيكون عنوانًا لحياته في قابل الأيام، حاله حال أبيه الذي ما انفكَّ عن تجرع شظايا الألم والعويل منذ صباه وكأنَّها اتفاقية عالمية كبرى واجب سدادها وتنفيذها عليهم.

انطلقت صفارات الإنذار بهدير مخيف لم تعهده المدينة منذ سنين عند تخوم الساعة الثانية والنصف صباحًا، انطلقت معلنة عن عاصفة الصحراء التي ستأكل منسئات العراق وحينها لا يبقى منه سوى ذيل يتجوَّل بين دول الجوار طلبًا لسقف آمن وبعض من دولارات ترمِّم جدران أبنائه المُكتظة بالشروخ.

حزمتُ حقيبتي وقبَّلتُ عادل وطبعتُ أنفاسي على خصلات شعر هدية مودِّعًا إياهما وكمّ هائل من الحزن والقلق يلفّني كعباءة تستر عري آلامي، وذلك للالتحاق بوحدتي العسكرية المستحوذة على مكان موحش بليد حيث «العبدلي» الكويتية، فانطلقتُ مهرولاً ناحية الكَراج الموحد وسط المدينة لعدوم وجود تاكسي في هذه الساعة يحدوني أمل كبير بأنَّ كل ما مرَّ عبارة عن أضغاث أحلام ليس أكثر أتت نتيجة لأكلة دسمة في عشاء أخير.

حطَّتْ قدماي أرض الكَراج وما زال يتناهى حيث أسماعي صوت انفجارات حمم الشرعية الدولية المنافقة الآخذة طبيعة دمام يقرع رؤوس خيبتنا بقلق مزعج وإشاعة إحساس بالنفي والاغتراب موشح بالذلّة والصدمة لِما ستؤول له الأمور من دمار أربك أحلام شعب ودَّع قبل قليل حربًا ضروسًا امتدت أغصانُ شجرتها الآثمة عمرًا حتى ناهزت الثمان خيبات.

استعرض الظلام قواه أمام حشود الجنود المتوجهة للالتحاق بالكويت، شاكسه قمر مراهق لا يعي ما يجري تحت سُلطة ضياءه، فراح الجميع يُجلد بضربات ضياء وظلام أثخن جراح تجمعاتهم وقد تنازعهم شعوران أهونهما العودة للبيت والتخلف عن الواجب العسكري والغوص بعيدًا في أحضان فراش دافئ نهايته مقصلة تنهي الحاكية بعنوان كبير ويافطة معلقة على الرقبة تنال ولد الولد: (الخائن فلان ابن فلان)، والثاني مواصلة الزحف حتى الكويت وطي صفحة الوجود بموت مجاني يرضي غرور الطاغية ورفاقه.

تشكَّلت ساحة الكَراج من بؤر لمجاميع يسودها انتحارًا اللونُ الخاكي، يتوسطهم عسكري يحمل بيمينه قريبًا من أذنه راديو ترانزستور صغير، حيث التفَّ البعض حوله بدوائر توزَّعت هنا وهناك والرؤوس محنية تخنق بصهيل جنونها ورعبها المستدام صوتَ مذيع نحس ينفث أخبارَ قلقه المميت من إذاعات عالمية شهيرة كـ«مونت كارلو»، «صوت أمريكا»، «صوت لندن» وهو يعلن عن بداية عاصفة الصحراء الرامية لطرد صدام من أرض الكويت بعد مُهلة تلقاها من أمريكا و٣٣ دولة مدججة بالموت والقتل والثكل.

سيارات الريم متهيئة للانطلاق بحفنة خِراف، حيث موت حتمي رسمته حماقة القادة وسياسات عنترية لا طائل منها سوى هزائم تعلو هزائم أخرى. لكنَّ الملفت للنظر أنَّ الجميع مُتردَّد يأبى الصعود وأخذ مكانه فيها خوفًا وتوقعًا بأن النهاية قد رسمت تفاصيلها هناك... وبعد ظهور الانضباط العسكري ونهره للجنود بالتحرك للصعود والغياب هناك وسط مقاعد الريم المغادرة للبصرة ومنها إلى الكويت؛ تحرَّك البعض منهم على مضض بشكل شبه مخدر تجره أقدام من خوف وقلق كمن يساق إلى إعدام مبرم إبرامًا غليظًا.

علا صوت انفجار كبير هزَّ أركان الحشود وسيارات الريم وحتى الانضباط العسكري، فتفرَّقت الحشود وانسحبت إلى جحورها بخوف أسطوري، ولم يخلفوا وراءهم سوى راديو ترانزستور لصقت في واجهته صورة للرئيس وهو يبتسم ساخرًا من شجاعة جنوده متوعدًا إياهم بموت لابد منه وفي جميع الحالات، وما زال صوت المذيع يصدح بأخبار طلعات جوية للتحالف العالمي وقد دكَّت مواقعَ عسكرية ومدنية مختلفة شلَّت أذرع اخطبوط العراق فبات كسيحًا بلا حراك تتناهبه أسماك الزوري الصغيرة عضًّا وقرصًا.

شعر أحمد بالعزلة الخانقة وهو يخوض وحيدًا في أرض الكَراج وسط ظلام مرعب حرَّضه على تخيل أشباح الجنود الموتى وهي ترقص فوق رأسه فاندفع للهرب ومغادرة المكان سريعًا، فسحق في طريق هروبه راديو الترانزستور، خاصة الجندي الذي ابتلعه الظلام بعد صوت الانفجار فأُخرس المذيع وإذاعته، حتى وجد أحمد نفسه سائرًا بمحاذاة شارع

«دجلة» الذي تصحَّرت معالمه فتخيله أرضًا جرداء تكتنفها الرمال بلا معالم للحياة، فازدادت معدلات الرعب لديه، مما دعاه لمواصلة جريه وهروبه الذي أصبح عنوانًا لحكايات أقرانه في ظل حياة سُرِقت على عجل.

هبط أحمد برأسه حيث رأس ولده الغائب في أحضانه فوجده قد أغمض عينيه واسترسل بالنوم مطمئنًا، ربما استسلم للنوم منذ أول كلمتين من القصة، مما دفعه إشراق وجهه على أنْ يطبع قُبلاً تترى على جبينه، لكنَّه وجد نفسه موزَّعًا بين خيارين إما أنْ يكون عقلانيًا ويضع الولد في فراشه ويرمي بجسده قريبًا منه لينام هو الآخر ويتخلص من أزيز ذاكرة معتلَّة ويختم القصة بعبارة (وعاشوا عيشة سعيدة وخليتهم واجيت)، أو يعتلي حصان جنونه ويواصل سرد حكاية وطن لا تهدأ الدنيا إلا باستباحته... وكل ذلك وهو ما زال يحتضن رأس ولده بشغف أجبر مآقي عينيه أن تتشظى في تفاصيل براءة وجهه الحالم بحلوى نادرة.

لفت انتباهه خلال جريه كحصان فَرَّ من صاحبه في شارع دجلة وعند منصة كل دريونة أو فرع منه يخرج شخصًا يكتنفه الرعب صادحًا بصوت جهوري بإعلان قصف موقع ما من المدينة: (قصفوا الجسر الجمهوري)... (قصفوا البريد)...

ولمَّا وصل قريبًا من الجسر الجمهوري؛ خرج جنديٌ موشَّح بالخاكي وعلامات الرعب قد اختفت من وجهه لغزارة الدم الشاخب من رأسه وهو يقفز موزِّعًا صراخه على مَنْ مَرَّ بقُربه من الناس ممن صادف مرورهم عفويًا أمامه وهم يواصلون هروبهم بجهات شتى.

- (لقد أطلقوا النووي. أهربوا حيث شاطئ دجلة واختبئوا هناك).

- (لقد قصفوا دائرة المخابرات في عواشة).

ابتسم أحمد فرحًا وصرَّح في سِرِّه: (يستاهلون)، وانسحب راكضًا بعد أن لامس رأس الجندي فصُبغت يداه بدمه الأحمر القاني عازمًا على الجري باتجاه بيته ليختم دراما هذه الليلة ويخلد للنوم العميق وليكن ما يكون من عقوبات تنفذها قوى الرَّيس بحقه في صباح يوم غد، ولسان حاله يقول: (يا روح ما بعدج روح).

استعاد بطريقة «الفلاش باك» حديث الجندي الذي أخبر قبل قليل باستهداف دائرة المخابرات حيث لم يخطر بباله إلا مثابة واحدة تستحق التفكير والمداولة والتحليل، وهي رغبة الانتقام من كل ما له صلة بهذا النظام ورئيسه الذي طالما أذلَّه طفلاً وطالبًا وعسكريًا بنظرات عينيه وبخطاباته المتوقع في جميعها حربًا قادمة، لكنَّه سرعان ما التفت لأمر مهم أجبره على التوقف ومراجعة ما نطق به لسان هذا الجندي الذي غفل عن حقيقة أخرى مجاورة لم يذكرها صراحة.

- «لقد قصفوا دائرة المخابرات في عواشة»

حقيقة أخرى سيغفل عنها حتى المذيعون في القنوات المشهورة، حقيقة أنَّه والأخرين ليسوا في المسافة ما بين الظلمة والنور، بل هم الأقرب للظلمة، وإلا كيف له القدرة على أنْ يغفل عن حقيقة كون بيته الذي ورثه عن أمه وأبيه كوْنَه وحيدهما هو أحد البيوت المجاورة لدائرة المخابرات التي

قصفتها قوات التحالف قبل قليل؛ كما صرَّح الجندي ذو الرأس المدمى.

هكذا هي أرواح المضطهدين الشفَّافة في ظل جحيم العالم ورودًا حكم عليها بالشنق حتى الموت بعقدة حبل مفتول بعناية طرفاه الأعلى بيد الله والآخر بيد طاغية يبتز أعناقهم بقُبل تقوِّض أنفاسهم وتصادر أحلامهم، ولا فعل لسماء تلفعت بلون مخاتل سوى البكاء بدموع خائنة كما فعلت يوم غُيِّبَتْ الشمس عنوة ظهيرة طف منسي.

هدمت القوة المفرطة للضربة الجوية لدائرة المخابرات عدة بيوت مجاورة ومنها بيت أحمد الآيل للسقوط، ونتيجة لذلك أُعلِن عن موت هدية وهي جالسة في محرابها تصلي طلبًا للرحمة وسلامة لزوجها أحمد الذي أصابه جنون أجبره على تبني الرغبة القاتلة في مغادرة هذا البلد وطي صفحات حروبه وفواجعه والهرب بابنه الوحيد حيث الحرية والسلام في ألمانيا... لكنَّه لم يشعر بكبير فرح لذيذ وهو هناك كما هو الفرح الذي ينتاب المرء عندما يستعيد ملذة حُرِم منها طويلاً ولسان حال الآخرين يربت على كتفه لبثِّ طمأنينة مفتعلة لديه وهم يقولون: (إنَّها الحياة يا أحمد)... فيجيبهم وهو يَصرُّ على أسنانه بقوة أُسقط الكثير منها في مناسبات مماثلة:

- (لا... بل قولوا إنَّه الموت).

الجريمة الكاملة

توقفتْ سيارة «الريم» القادمة من «بغداد» عند أُولى تباشير وجه مدينة «الماجدية» الباسم كوجه عروس في ليلة زفافها، بعد سماع سائقها كلمة أطلقها أحد الركاب: (الماجدية... نازل)... لتهبط منها امرأة فارعة الطول، خمسينية العمر، متعبة التقاسيم، كانت قد دَسَّت بَياضَ شَيبتِها بين ثنايا «شِيله» سوداء أَغْرَت بقية هيئتها كالنار في الهشيم كي تتبنى سوادًا كُليًا خيّم ظِلَّه بهالة دائرية على عينين متغضنتين أكلتهما سيول دموع حرّى بمناسبات سابقة تدفقت فوق وسادة وسادة قطن خشنة فأحدثت نهرين كبيرين مصبهما خليج القلب.

- (ناوِشني زنبيلي).

استلمت چمالة زنبيلها من يد مساعد السائق «السَّكِن» وهي تقف في الشارع خارج السيارة، مخلِّفة بإثارة درامية تساؤلات عدة لدى ركاب السيارة وسائقها لتؤجج في دواخلهم كمًّا من التوقعات بهوية خارج المألوف وحدث قادم، غامض الشخصيات، جهنمي التفاصيل، سيحل كيوم القيامة على هذه المدينة الوديعة.

مَيَّزها الولد «سالم» من خشونة صوتها إنَّها جارتهم «چماله» فالتفت ناحيتها لحظة استلامه جريدة «البعث

الرياضي» من «رحمن» صاحب كشك الجرائد الوحيد في المدينة... لذا حاول التخفي عن أنظارها بوضع الجريدة حاجزًا بينه وبين مدى رؤيتها النافذ كسنَّارة صياد محترف استقرت في جوفِ حَلْقِ سمكة «شلج» بفم عريض.

عادت «چماله» من بغداد بعد زيارة قصيرة لمواجهة زوجها «شلاه» السجين بحُكم قضائي عسكري بتهمة إطلاق نار متعمد على يده في إحدى المعارك الملتهب أوازها في ثمانينيات القرن العشرين بين العراق وإيران، حيث عمد إلى دسِّ إطلاقة نار هائجة في لحم راحة يده ألقمها رشاشته الكلاشينكوف «النص أخمص» أثناء واحدة من هجومات حرب الثمان خصيصًا لغاية رائجة لدى أفراد الجيش آنذاك، هذا الجيش الناقم ضباطًا ومراتبَ على حياة الحروب... وما ارتكبه شلاه جريمة كبرى يعاقِبُ عليها النظام بأحكام شديدة مختلفة، لذا أُودِع السجن لمدة يجهلها الجميع.

ومصدر مغامرة شلاه؛ بل ورطته؛ لا لشيء سوى رغبة يائسة في الخلاص من أنْ يكون طِعامًالِلْحوم الشَرِه، الذي استوطن جبهات القتال ورايا الموت الحتمي عند حدود العراق مع إيران، هذا الحوم صاحب المهنة الوحيدة بالتهام ما تفسَّخ من جثث قتلى الحروب.

إصابته تلك لو أنَّها مرَّت بسلام وبشكل مقنع للجان الحربية بعفوية الحادث، فهي بلا شك ستدعو رؤساءه لسحبه كمُعاقٍ إلى مواقع الخلفيات وبالتالي مغادرة نهائية وإلى غير رجعة لخبايا خوف عتيد، أزيز رصاص أرعن، انفجار ألغام طالما ثرثرت معزوفاتها في آذان جنود خائبين، دوي

قاذفات تسخر من ضحاياها بأسنان صفراء، ومشاهدة مجانية إجبارية لعرض سينمائي لجثث تتطاير وقد تمزقت كل ممزق، شاكية إلى الله ظلم ذوي القرار وأقدار زمن شوفيني ملعون... مما يعني نجاة أبدية من جحيم الحرب حتى لو استمر غليان جنونها قرونًا.

بعد أنْ تَلَقَّت چمالة زنبيلها المنتفخ من يد السَّكِن، وضعته أرضًا فانكفأ على جانبه، وكأنه يجامل صاحبته بأنْ يبدو مرهقًا هو الآخر... التفتت يمينًا وشمالاً باحثة عن شيء مبهم فقدته في وجوه المارَّة، وما إنْ لمحت الطفل «سالم» حتى أعلنَ خوفُه صراحةً فشله في التهرب من منظور جنونها وسقوطه في فَخِّها حيث نادته بصوت أشبه ما يكون بصوت من كان تائهًا في الصحراء مستغيثًا بأول طائرة حلَّقت فوق رأسه طلبًا للنجدة.

لم تكن لدى «سالم» تلك العضلات المناسبة أو الرغبة الحُرَّة ليكون حمَّالاً عند امرأة شرسة طالما ضربت الأطفال بقسوة على مؤخراتهم وهم يعبثون ببراءة ساذجة بكُرة مطاطية قرب «چنبرها» المكتنز بالحلويات (قلم غازي... طاطلي... توفي... وصينية عسلية بألوان شتى)، وهذا ما دفع بجميع الأطفال للامتناع عن المغامرة والاقتراب منها مهما كانت نيتهم كأَنْ يكون لعب الكُرة قرب چنبرها، أو شراء حاجة منها. وكل هذا الاحتراز الذي يراودهم كان مصدره الثابت والمعقول مخافة أن يشملهم الضرب المُبَرِّح الذي كانوا يُواجَهون به من قِبلها ومن قِبل أهاليهم مع كلمة «آسف» لها من قبل الآباء تمنع طيشها بأذاهم، وحسرة من قبل الأمهات تجاملها، وعديل دعوة بفك سجن زوجها شلاه ترطب

خساراتها. وشعارهم في كل ذلك (مسكينة. الوكت ما يرحم).

الخوف وحده من كان يتجوَّل في عقل وروح وقلب سالم حينها، فقاده ذلك محرضًا باستجابة سريعة حاملاً زنبيل چمالة من على الأرض مخافة أنْ ترفعه وتدمي به وجهه دون تردُّد إذا تأخَّر في تلبية طلبها، ومع ذلك سترغمه على حمله وإيصاله معها حيث بيتها الذي يبعد عن بيتهم بثلاثة بيوت باتجاه شاطئ «المشرح»، لذلك كان ذكيًا بتلبية طلبها فورًا ودون جدال، لأنه حتمًا سيكون الخاسر الأكبر في الحالتين.

شراستها وسلوكها الغريب؛ خصوصًا مع الأطفال؛ دفع بهم لحزم أمرهم على عدم الاقتراب، أو الشراء منها كما تقدَّم في الاحتشاء الذاتي للخوف الذي ترجمه المونولوج الداخلي لسالم، مما قادها ذلك إلى تحطيم چنبرها بكل ما فيه من حلويات وتركه مرميًا يغفو على إسفلت الشارع يشكو التشتت والتبعثر، يعلوه عديد ذباب ساخر، معلنة بعدها تلك المرأة الغريبة اعتكافها وابتعادها عن الناس والشارع إلا لشراء احتياجاتها المنزلية المتواضعة.

لا يعي الأطفال وأهاليهم ما الذي يعتري چمالة كي تكون بهذا الشكل الغامض والقاسي؟ ربما هي جنّية كما يُشاع عنها وليست چمالة المرأة الوديعة الطيبة كما خَبِرَها الكبار فيما مضى. وفي إشاعة أخرى أَنَّها ماتت مع زوجها بحادث سير على طريق البتيرة أثناء وجهتهم لزيارة الإمام علي تشفعًا به لطلب الذرية بعد عُقم أُبتليا به حفنة سنين.

ثمة سؤال قابع في ثنايا صدور الناس يوقظ تأويلات عديدة لجدلية موت جمالة وزوجها في الحادث والذي ما من إجابة حقيقية راسخة تحيط به، انطلق هذا السؤال من عتبة فضولية لديهم: (يا ترى، من هي هذه المرأة المُحاطة بكل أسرار الدنيا؟).

والغريب في الأمر أن ما من أحد من الناس، أو حتى الشُّرطة له القدرة على مواجهة جمالة بهذا السؤال الذي هو بالتأكيد مستفز حدَّ أنْ يدعوها للإطاحة بجيش كامل من المتسائلين بين قتيل وجريح.

اِعتدل الزنبيل بين يدي سالم فَلَفِتَتْ انتباهه «دجاجة عرب» مُكَبَّلة الأقدام ترزح تحت حاجات كثيرة داخل الزنبيل، وتصدر أصواتًا غريبة وكأنها تطلب النجدة للفكاك من أَسْر هذه المرأة الغريبة في كل شيء.

اختنق سؤال في صدره لم يمنحه الفرصة للتحرُّر: (ما كل هذه الحاجات غير المُترابطة أو المُناسبة لامرأة كانت في زيارة زوجها السجين؟ بريمز، رقعة شطرنج، كَيوه، ودشداشة رجالية باهتة اللون كادت أن تصرعه رائحتها العفنة؟).

وضع سالم الزنبيلَ على ظهره بحذر شديد، وترك جمالة تتقدمه وهو يسير خلفها كنعجة بلا حول ولا قوة، وقد التفَّ حول عنقه حبل مفتول بقوة بداية حدوده عند رقبته ونهايته عند يدٍ خشنة الأصابع لامرأة غامضة لا تَطالَها التوقعات بدقة مهما كان صاحبها حصيفًا ثاقبَ النظر.

- (آخ يابه... شنو هاي؟).

- (شكو؟ شبيك؟).
- (« ما أدري! شي وكَع على ركَبتي).
- (بلّه أشوف؟).

أمسكتْ ياقة قميصه متطلعةً بها بريبة واتهام، ثم أحكمت وضع الزنبيل على كتفه بقوة جعلته يترنح قليلاً أمام ضغطها العدواني المبالغ فيه وهي تقول بسخرية فجّة:

- لا ماكو شي، الدجاجة ضركَت عليك... من نوصل للبيت أنظف ركَبتك المَلْحة، وأغسل قميصك... والدجاجة... الدجاجة لازم تنذبح الليلة.

تَمَلَّكه خوف عظيم وهي تذكر تنظيف رقبته وذبح الدجاجة فكاد على إثر هذا الخوف أنْ يرمي الزنبيل بعيدًا ويُسابِق الريح هارِبًا، لكنَّ الحبلُ المفتول ما زال يعانق نحره ويعيق حركته، متخيلاً إياه سكينًا ستذبحنه مع أقل حركة.

وصلا بخطوات بطيئة حيث بيت جمالة التي كانت تُقدِّم خطوة وتؤخِّر أخرى، خطوة يتقدمها هو وخطوة هي من تتقدمه بها، ومع كل خطوة تراجعتْ بها خلفه يرى وبيقين أنَّه يمشي برأس تدلى من القفا وقد حُزَّ بسكين عمياء... وما كل ذلك إلا مصدر خوفه وجنوده وهم يصفعون خدَّ برائته.

فتحتْ جمالة باب بيتها بمفتاحها الكبير المُعلَّق بحبل طويل حول رقبتها، ودفعت بسالم داخله كمجرم خطير يُقَاد بيد سجانيه، فاستقبلتهم عند مدخل البيت الذي يسمونه «المجاز» قطة سوداء بعينين خضراوين راحت تتمسَّح منتشية بأذيال جمالة المتسخة بالتراب لهطول ثوبها الأسود

البال قريبًا من الأرض. وما إنْ اقترب سالم منها رمقته بنظرة شيطانية مرعبة زادت بلَّة طين رُعبه.

أَمَرَتْهُ جمالة بإشارة من رأسها بوضع زنبيلها في المطبخ... وما إنْ خطت قدماه الواهنتان مدخله العفن رائحةً وأثاثًا؛ أحسَّ عندها بثقل الزنبيل بيده حتى خلاه ثقلاً يشبه ما يصنعه رياضيو زمن بسيط متواضع لمزاولة رياضة رفع الاثقال بملء سطلين كبيرين بمادة الإسمنت ومد أنبوب حديد صلد يربطهما والتباهي برفعهما... وأمام هذا التغير الواضح في طبيعة الزنبيل رمى به وسط المطبخ خائفًا، فتدحرجت منه الدجاجة بمشهد مدهش عمَّق خوفه، تلك الدجاجة التي ذرقت عليه في مسيره بزنبيل جمالة وسط الشارع، فقد تقافزت بريشها راقصة بلا رأس وبنحر يشخب دمًا حتى عمَّ بلونه الأحمر كامل المطبخ فأغرق تفاصيله، لِيَفز سالم هاربًا وهو يتقافز على أطراف قدميه كمن يسير على جمر مستعر.

ولمَّا توسط حوش البيت بقدمين يهتزان كسعفة نخيل في جوٍّ عاصف؛ جال بنظره أرجاء المكان الموحش باحثًا عن جمالة فألفاه فارغًا من كل حياة، وما من ظل لجماله وقطتها اللعينة فانتهز الفرصة وبأقدام من هزيمة هرول ناحية باب الدار وراح يعالج أُكرته للهرب وتنفس أوكسجين شارعهم المفضي إلى بيتهم وطي صفحة جمالة وجنونها... فلم يفلح في تحريك الباب رغم محاولات عديدة منه باءت جميعها بالفشل. لقد كان الباب مقفلاً بطريقة معقدة لا علاج لها.

– ما العمل؟ وأين اختفت جمالة وقطتها؟

تساءل سالم بعقل مُشوَّش لم يبلغ الحلم، فاصطدم بجدار كونكريتي من الغموض أعاده إلى الحوش والتفكير بمحاولة أخرى للهرب، فاهتدى لارتقاء السلم باتجاه السطح والهرب من هناك على سطوح منازل الجيران حتى الوصول لبيتهم وإعلان ختام الحفلة التنكرية هذه... كان باب السطح مقفلاً هو الآخر، فحاول معالجته بطريقة وأخرى، لكنها محاولات يائسة باءت بفشل مريع وكأن الفشل هوية تعريفية تكشف شخصيته.

بعد نظرة بانورامية لبيتونة بيت چمالة وجد سالم عند نهاية السلم دراجة بثلاث عجلات استحقاق طفل بعمر خمس سنوات. شدَّه الفضول إليها وتأويل حقيقة هوية صاحبها، فحدَّث نفسه بمونولوج طفل بالَ على نفسه خوفًا وقال:

– ربما هي دراجة أحد من غُيب من رفاقي الأطفال الذين اختطفتهم لكثرة ما شاكسوها فاشترتها له لقطع دابر بكاءه الذي أزعجها.

وبحذر وخوف شديد اقترب من الدراجة وأمسك سِكَّانها، وحاول اعتلاءها فسقط منها لمرتين، وفي الثالثة اهتزت به بقفزات مخيفة تدحرج على إثرها ساقطًا حتى آخر درجة من السلم، فوجد نفسه وقد عاد أدراجه حيث حوش البيت.

شعر بآلام عدة في ساقيه وظهره وما من أحد هناك يسعفه سوى صمت القبور الذي امتصَّ صخب البيوت في مدينته فغدا كل شيء فيها صامت تذرعه الأشباح وهي تتصارع فيما بينها من تكون له الغلبة ليكون مرئيًا.

تساءل من جديد: (أين القطة؟ وأين چمالة؟). وما من مجيب يبرد غليل أسئلته، حتى سمع صوتَ وشوشة ماء، وطاسة تغرفه وتسكبه فيأتي مموسقًا من جهة الحمَّام، فعاوده صهيل الأسئلة من جديد: (يا ترى من يربض وسط هذا الحمام وهو ينثر طاسات ماء على جسمه؟).

فانبرى صوت چمالة من داخل الحَمَّام مُجيبًا عن تساؤله وهي تناديه بجلب المنشفة وبقية ملابسها المرصوفة على القنفة وسط الحوش بلهجة آمرة أيَّدتها رؤيته للقطة ذات العيون الخضراء وهي تطل من خلف الباب بوجه ممتقع يجلد روحه.

استجاب لها سريعًا حاملاً ما طلبته منه حتى باب الحمام والحياء المُغلَّف بالخوف وعديد الأسئلة يحيط وجوده... فقال لها وقد اصطكت أسنانه وهو يمد يدًا تحمل ملابسها: (هاي ملابسج خالة).

أخرجتْ يدها عارية من خلف الباب حتى إبطها الكثيف الشعر بزند مكتنز اجتمعت قطرات مطر حوله فبانت كحبات لؤلؤ تناثرت فوق جلدها المترهل القابع في اللون الأبيض المشرب بسمرة خفيفة والذي تعترف تفاصيله بعدم ملامسته الشمس أبدًا... انتزعت من يده ما طلبته، وأقفلت الباب بقوة... أرغمه صوت إغلاقه على السقوط والتعثر متقلبًا حتى الحوش.

بعد تأكد سالم من مكان المرأة وقطتها راودته ثمالة شجاعة خُلقت وراثيًا في سذاجة الأطفال، فراح منطلقًا يتجوَّل في

أروقة البيت بأنفٍ جسَّاس، فدخل غرفة نوم جمالة، فصعقه منظرها، لم يكن يتخيل أبدًا امرأة على بعد خطوات من موت محتوم وعمر مهزوم، تملك غرفة نوم بهذا الجمال والترتيب والتنسيق الشبيه بغرف الأُمراء في قصص ألف ليلة وليلة، فحدَّث نفسه بشيء كانت تُردِّده جدته عليه بصحبة إخوته في مساءات شتوية: (نعم هم الجن الذين باستطاعتهم نقل بيوت الأُمراء؛ حتى الشوكة والسكين؛ إلى أي نقطة من هذا العالم، ويضعونها بين أيدي من شاءوا).

واصل تجواله في بقية تفاصيل البيت فكان كل شيء فيه عادي ولم يعثر على أي خيط يدلّه على حقيقة جمالة وقطتها، فتيقَّن وبما لا يقبل الشك أن هناك سِرًّا خطيرًا لا يعلمه هو ولا حتى شيخ الجامع الذي سيعجز أمامه رغم تجاربه الكثيرة في التنبؤ بولادات النساء وطلاقهن، فضلاً عن إخباره بمفقودات الناس من مال وذهب ومن كان وراء سرقتها... لذلك اعتقد سالم أنَّه ببحثه هذا سيكون صاحب سبق كبير في اكتشاف غموض جمالة وقطتها وبيتها وقبيلتها من السَّحرة، فهي للآن لدى الكثير ليست جمالة المرأة الوديعة زوجة شلاه السجين والتي يعطفون عليها وغض أبصارهم عن كثير جنونها، إنَّما هي شبحها، أو الجن الحارس لها.

عاد منكسرًا إلى الحوش خاوي الإجابات، فرمى بنفسه على الأرض خافيًا رأسه بين قدميه واستسلم للنوم القسري الذي استيقظ منه عقب دقائق اعتقدها عُمرًا بأكمله، ليجد ما كان يبحث عنه. لقد خرجت جمالة تنشف شعرها بمنشفة قذرة تتقدَّمها القطة وهي تهتز بمواء وطريقة مخيفة مُحرِّكةً شعرها

في محاولة لرمي ما علق بها من الماء باتجاهه، لكن الملفت للنظر أنَّ جمالة الخارجة توًّا من الحَمَّام بصحبة قطتها لم تكن هي نفس جمالة التي قادته قبل قليل كخروف أخرس اللسان أحمق الخُطى من الشارع حيث توقفت السيارة حتى بيتها المرعب... لقد تغيَّر شكلها، فهناك شعر فاحم استرسل حتى عجيزتها المدورة، وبجامة نوم فاضحة يطلُّ من خلالها ثديان كبيران مدوران كرمانتين هائلتين، وسُرة مثقوبة كبئر تكتنفها الألغاز وسط بطنها المسطحة، وساقان منتفضتان بانتا من خلال القماش الشفاف بلون أبيض أشد من الحليب... لكن المثير في كل ذلك هو عيونها التي تحوَّلت إلى لون أزرق هزَّ ما تبقى في سالم من عقل.

دخلت جمالة غرفة نومها، فتحرَّك في داخل سلام شعور خفي قاد قدميه خلفها بلا إرادة منه، فسقط عند الباب، فأمسكت بأطراف أصابعه، وقادته سحلاً إلى الداخل، مما دعى القطة للدخول خلفهما، لكنّها أقفلت الباب بوجهها وتركتها تعبث به بأظافرها وتركله بأقدامها الناعمة حتى أعياها ذلك وتوقفت عن نزعتها الشريرة بعد تأكدها بشكل حاسم أنَّ سيدتها جمالة ستقوم بما يدعو لكي تكون بمفردها مع هذا الصبي.

توسطا الغرفة بعد عملية السحل الممنهجة من قبل جمالة وهي تتطلع بشبق العجائز ناحية سالم المسجى أمامها وهو مسلوب الإرادة بلا مقاومة تُذكر، وكأنه جثة بيد «مغيسل». رفعته عن الأرض فاستقام أمامها فتحسَّست جسده بيد من حرير، ومررت أصابعها في ثنايا شعره، وبحركة عنيفة مزَّقت

جميع ما كان يرتديه من ملابس ودفعت صدره بكلتا راحتيها فوق سرير وثير مُعطَّر بالنفيس من العطور تتوزَّع فوقه وسائد ناعمة. وبلا مقدمات تُذكر انقضَّت على منتصف طفولته وألقمت فمها الموشى بالنقوش السومرية شيئه الصغير، وراحت تلعقه ككلبة بشهوة ونهم عجيب وملامح جوع مُضنٍ طال أمده.

بثَّ كل ذلك خدرًا شفيفًا في أوصال تباشير ذكورته... وبين آهة وأخرى كانت تخنق هذا الشيء الذي انتصب بين نهديها المتورمتين كخنجر لا يتردد عن الطعن والجرح وغراقة المياه، لِتعضه بعدها برفق بعيون من غبش وسالم غائب عن الدنيا بلا حراك أو مقاومة تند عن غباء فحولته... حتى عَلَتْ آهاتها، فاشتد جنونها لتلقم منتصف دوائرها في فمه صارخة بنشوة كخوار عجل سامري إطاره فرح غاب طويلاً، استجاب له سالم مرتجفًا بشيء من السعادة ما مرَّت يومًا بساحة طفولته الممتدة لعشر سنوات كمن لعق «شيف» ليمونة حامضة. فراح يتحرك بلا وعي منه كمتسابق فوق ثور مهتاج لِينطلق بعدها ميزاب مياهها الدافئة ماطرة على وجهه لتغسل أدران سذاجة طفولته، فشعر بطعم غريب لم يجده في أطيب أطعمة طبخ أُمه.

شعر سالم بعد ثورة عارمة، وصراع حضارات ثمة شيء لزج ينتعض متحررًا من شيئه الصغير الذي أحدث في جوانحه رعشات غريبة لم يألفها فيما مضى، فتسرَّب خدر أحسسه جميلاً في أوصال ذكورته فعلت وتيرة حركتها فوقه من جديد وهي تصرخ: (بعد... بعد).

وهنا انقطع صهيلها ورمت جثتها جانبًا فوق سريرها الوثير شبه ميتة إلا من أنفاس تتلاشى رويدًا رويدًا، فطال أمد هذا الموت الذي نال من جسد جمالة والذي تحوَّل إلى سابق خشونة ملمس روحها، لتستيقظ بعدها بصرخة أرعبت ما جناه من متعة استجاب لها شيئه الصغير بتدفق مياهه الصمغية فوق جسدها لتزداد شراسة صراخها وهي تقول:

– شجابك هنا؟ شدخلك بيتي؟ وليش انت بلا ملابس؟... وليش آني هيج؟

أطبقت يديها على عنقه مُحاوِلة ختم حياته بموت مستحق خنقًا وهي تبكي وتولول بضربات قاسية على وجهها المتضغن: (يا فضيحتي... يا فضيحتي).

بعد هنيهات من اللطم والعويل عادت إلى سابق عهد غرابتها وسحبت سالمًا إلى الخارج وهي تركله بقدم من هواء بمعية ملابسه الممزقة، ثم أقفلت الباب خلفه، فابتلعه الشارع الذي يفضي إلى بيتهم، وراح يسابق الريح باتجاهه لينزوي هناك في أعلى السطح محتضنًا فرش النوم متلفعًا بها.

وبعد أمد لم يطل؛ عثرت عليه أمه وهو يرتعد من الخوف ورائحة بول الخائفين تزكم الأنوف تتضوع من جسده العاري، وبين يديه ملابس ممزقة وقد أُخرس لسانه بصمت أهل القبور سوى مواء بطريقة أشعلت تفسيرات أهله الفلسفية العجيبة، لترصف حكايته بتأويلات متعددة إلى جانب حكاية جمالة المعقدة.

مَرَّ زمن لا يحيط الناس بأمده دون صخب أو أحداث تثير فضولهم لينسجوا الحكايا على نسقها، حتى استيقظ الجميع صباح يوم مشرق على مرأى جمهور غفير لا يُعرف لهم وجود سابق في هوية المدينة يتسيد واجهة بيت چمالة، ورائحة تفسخ بشري عفنة تسود المكان، وثمة أشخاص بملابس رجال الفضاء وهم يخرجون من بيت چمالة حاملينها وهي جثة هامدة على عربة مستشفى وقد تفسَّخ جسدها حتى بان مسطحًا فوق العربة، إلا بطنها فقد بدت منفتخة كحامل تربعت عليها قطة لم يتعرف عليها أحد من الأهالي.

وما إن وصلت العربة قرب سيارة الإسعاف حتى قفزت تلك القطة باتجاه سالم الذي كان يشارك الأهالي الفُرجة على هذا الحدث الصاعق للجميع. حمل القطة على صدره وتابع آلية إدخال جثة چمالة داخل السيارة من قبل أصحاب بدلات رجال الفضاء لينطلقوا بها على وجه السرعة مُخلِّفين ورائهم ضجة غريبة وارتطام أجسام بجدران السيارة، وثمة رأس يطل بصعوبة من بابها الخلفي وهو يصرخ: (النجدة).

ضرب الجميع راحة بأخرى مُعلنين أسفهم لرحيل چمالة حيث أكدوا أنَّها قد ماتت قبل سنة من الآن، وربما أكثر، فقد لوحظ اختفائها منذ زمن بعيد...

وقد ربط الجميع موتها حُزنًا ساعة تلقيها خبر موت زوجها في السجن من على لسان رجل عجوز بلحية بيضاء وعصا برأس أفعى يصفع الهواء وهو يقول: (لا تقلقوا، سينتهي كل شيء... لقد مات شلاه).

تابع سالم بمعية الأهالي بشيء من الاهتمام شبح سيارة الإسعاف وهي تختفي خلف غُبار كثيف أحدثته سرعة عجلاتها ليعود حاملاً القطة ويلقمها شيئًا من الحلوى التقطه من جنبره بيدٍ معاقة تبدو للرائي وهي مخترقة برصاصة كلاشينكوف.

راح سالم يوزِّع أنظاره منتشيًا بقهقهات عالية، بين القطة وهي تتناول حلويات جنبره الواحدة بعد الأخرى بشهية مفرطة، وبين عديد أطفال اجتمعوا أمامه وهم يلعبون الكُرة بسعادة لم يعهدها فيهم، ودون أنْ يمنعهم أحد عن مواصلة صخبهم وتفاصيل جنونهم، حتى بان شبح امرأة من بعيد متشحة بالسواد، تحمل زنبيلاً، حينها توقف كل شيء، وانقطعت قهقهات سالم، وَكَفَّت الكُرة عن الحركة تحت أقدام الأطفال... إلا القطة التي واصلت التهام ما علا الچنبر من حلويات القلم غازي والعسلية.

ورق الكلينكس

اعتاد الشاب «سمير» مرافقة صديقه وجاره الأزلي الأبدي «أمجد» في كل إجازة عسكرية كانا يتمتعان بها معًا لارتياد أحد بارات شارع أبي نؤاس لكرع كؤوس الخمر «العرق» حد الثمالة، والعودة بلا وعي إلى بيتيهما المتجاورين كجُثث هامدة بمنسوب مرتفع من هرمون السعادة الوهمية، وذلك نتيجة سوقهما للجيش معًا والمشاركة في الحرب دون معسكر تدريبي باتجاه نهاية العالم حيث «نهر جاسم»، ذلك النهر البصري الذي حاز شهرة عالمية بكونه مقبرة جماعية لكل من شارك في معاركه الطاحنة مع العدو في ثمانينات القرن العشرين.

ارتبط سمير وأمجد بصداقة ارتقت لتكون أخوية تُحتذى، حيث وصل مداها لجميع أبناء المحلة واتخاذها مثالاً للصداقة السامية في تفاصيل هيكل وجودهم اليومي، حتى أصبحت عنوانًا لتمييز العلاقات الصادقة من عدمها بين الناس، وعماد كل ذلك هو حكايات مختلفة الأحداث بعضها مُؤَلَف شعبي مبالغ به، وبعضها حقيقة متواترة اختمرت طويلاً في الوعي الجمعي للناس، ومنها ما حيَّر الجميع في إيجاد مصطلح مختزل لهذا الواقع الحميمي بينهما، حيث تداول الناس بشيء من الذهول حادثة رسوب متعمَّد لسمير في الصف السادس العلمي رغم تفوقه لا لشيء سوى ليكون بصحبة صديقه أمجد الطالب الكسول الذي رسب لعدة سنوات مما سيدفع بوزارة

التربية لترقين قيديهما وسوقهما عسكريًا برفقة بعضهما من قبل التجنيد. وبذلك يضرب سمير عرض الحائط توبيخ أبيه وتقريعه لتكرار رسوبه تيمنًا بأمجد، حتى مع تحذيرات عديدة سابقة أتت بلغة فيها من الخوف والوجل وشيء من الرجاء والدموع الساخنة من مستقبل مرير سيقتل كل حلم شفيف في فيافي روح أمٍّ وأبٍ اكتفيا من الدنيا رزقًا بولد اسمه «سمير» لو إنَّ طارئًا ما حصل له وسط محرقة نهر جاسم الكبرى. وهذا يعني وبما لا يقبل الشك موت أُمه حسرةً عليه، تلك الأم التي كانت تنام حزينة لسماعها بين يوم وآخر خبر استشهاد ولد من فلذات أكباد صويحباتها في المحلة، لتشاركهن نحيبًا وعويلاً ولطمًا مؤجلاً على سمير الذي لم يستشهد حتى اللحظة وهو يواصل هوايته في تقريح جفونها وتغضن مآقيها على عجل مع كل التحاق له بعد نهاية إجازته العسكرية.

وفي ليلة شتائية باردة تنازل القمر فيها عن ضيائه، وأقفرت الشوارع من ناسها إلا القطط السمينة والكلاب البائسة تذرعها جيئةً وذهابًا وهي تسحل بقايا فشافيش وعظام مطاعم الألفة على امتداد شارع أبي نؤاس، هذه الليلة الأولى من عام ميلادي وُلِد هاربًا من روزنامة كادت أن تكون الأخيرة في مرئي أيام شباب يائس، بائس حيث كانا سمير وأمجد في أحد البارات يقضيان وقتًا عبثيًا يجلدان به نفسيهما بقسوة وهما يتداولان قضايا خبلهما في أوج اللاوعي بصحبة عرق يتداوله رجال الطبقات الدنيا بتسمية غريبة «حليب سباع».

– منذ زمن وأنا أحلم بطيفها يمشط شعر أيامي المُجعَّد...

قال سمير وهو يضع بيد مرتبكة، مخدرة كأس شرابه على قماش أبيض غَلَّف مائدة شراب فقيرة بعد كرعه «حليب

السباع» دفعة واحدة... ثم التقط عَقِب ذلك قطعة خيار مملح دسَّها سريعًا في فمه المتثاقل، ليعقبها بملعقة خاثر حامض أغمض له عينيه وهو يَصرُّ على أسنانه متلذذًا بطعمه اللاذع.

ردَّ عليه أمجد وهو يمسك رأسه بعد نوبة صداع أحدثها الشراب فيه:

– بمن كنت تحلم أيها الصبي المراهق؟

– بمديحة معارج.

أطلق أمجد ضحكة مفاجئة دعت جميع من كان حاضرًا من السكارى والبويات الالتفات ناحيته بشيء من الدهشة، لكنها متوقعة لتجارب سابقة كانا يتحولان فيها إلى خرقة بالية تتقاذفها الأيدي بعد بلوغ الكحول مأخذه في ثنايا عقل مترنح وجسد خاو.

– تعبت من سُلطة الأحلام بمديحة معارج وهي تبتز رجولتي بليالٍ حمراء كاذبة لا طائل منها سوى خراب مالطا وفناء براقش.

واصل أمجد ضحكه بطريقة القهقهات المتقطعة التي غمرت عينيه بدمع ساذج... وبعد نفاذ كامل طاقته الساخرة توقف متطلعًا بكأسه وهو يقول:

– ما رأيك بأن ترافقني غدًا؟... وهو كما تعرف يوم جمعة لزيارة حبية ودية لمنطقة «الكمالية» وتنهي تاريخك الحالم البذيء مع مديحة معارج وهي تطل كومضة سرعان ما تغادر جنونك حيث الحقيقة والتدفق الماتع هناك.

مرَّتْ إجازتان على عرض أمجد لسمير بالذهاب معه للكمالية وقضاء وقت مثالي مُمتِع مع واحدة من بائعات الهوى بمبلغ خمسة دنانير لا غيرها، والتفاخر بتجربة جنسية تبقى عالقة في الذاكرة... ولكن حتى الساعة لم تصدر موافقة سمير لهذا العرض المغري رغم مناقشته في وحدانيات روحه وهو يستعرض شريط جنونه مع مديحة معارج...

وعلى غير المتوقع وافق الجندي العراقي البائس الذي اسمه سمير لخوض هذه التجربة الفريدة والتي فجَّر فكرتها في جوانيات خبله جندي آخر اسمه أمجد، حيث زرعها بمحبة أخوية في عقل ووجدان صديقه ليتفقا على زيارة أكيدة لمبغى الكمالية.

وما إن حطَّت أقدامهما أرض معادهم حيث كمالية مسحوقة بتجارب أصحابها الماجنة؛ رحبَّت بهما أجناس مختلفة من الناس ترتسم على محياهم شروخ زمن أفضى بهم للعدم، والجميع ينادي:

– تفضل، تفضل، تعال هنا... هلا أبو خليل... هلا أبو الشباب.

وهم يبالغون بعديد مزايا لنون النسوة القابعة بين أربعة جدران خاوية في دهليز حياة متخيلة بجمال كاذب وهي تجتر حياتها عنوة بفعاليات تحيلنا على صورة مغامرات كلاب سائبة ساعة التكاثر.

تقيأ سمير بطريقة كاد أنْ يلفظ معدته معها وأحجم عن الدخول في أي من غرف المتعة المعدة له ولأقرانه من شباب

لم يعرف أنبوب رجولتهم وعاءً حقيقيًا يطفئ لهيب هيجانهم الحيواني ويبعث الدفء في أشياهم التي عانت وتعاني بردًا تجاوزت درجات حرارتها الصفر سالب.

حاول أمجد ثني سمير وإعادته إلى صوابه بطرق شتى، إلا أنَّ رغبته تلاشت حد أنْ صرخ به: (رجعني لبيتنا).

اختفت مديحة معارج عن الظهور من على شاشة التلفزيون لزمن طال أمده مما أصاب سمير بالإحباط وبكآبة كبيرة دعته للتفكير منفردًا بفكرة أمجد وإعادة تداولها في مخياله القانط، حتى ضرب بقبضة يده الأرض بعنف وصمَّم على الذهاب غدًا لوحده للكمالية ونسيان مغامراته الوهمية مع مديحة معارج وخوض التجربة على حقيقتها والحصول على مُتعة كان قد افتقدها طويلاً.

– وهسه وين أروح؟

خاطب سمير بخجل امرأة تجاوزت الثمانين من عمرها الشائك وهي تتصدر باحة دار من مخابئ المتعة في منطقة الكمالية حيث يبدو أنَّها مديرة ومالكة لهذا الهيكل القائم على ساق واحدة.

– يمّه!... هلا هلا... بعده لحيمي! هاي أول وكَعته.

أشارت له الثمانينية ذات الثديين المتهدلين والأسنان المتساقطة بسبابة يدها الممسكة بسيجارة في أول جذوتها ناحية غرفة أدهشه بابها المتشكل من قطعة قماش «بازه» حملت بين جنباتها العديد من لسعات سجائر الوافدين على جَنَّة مؤقتة برغبات رائدها الجنون.

– قبل لا تروح... حجي زايد، وآخ وأوي ما أريد... وراك ناس لا تتأخر... نفذ وكول يامن ستر.

– كل تأخيرة وبيها خيرة.

وعلى غير العادة والمتوقَّع؛ تسرَّبت في جوانيات سمير قوة استمدها من جنون أفكار صديقه أمجد لتهيمن على المشهد بطولة فريدة لجُندي خارج أسوار ميدانه الفعلي المعتاد، في معركة لا رصاص فيها ولا مدافع، سوى آهات كلسع الأفاعي تدرُّ أموالاً من فئة خمسة دنانير في جيوب تُجَّار اللحوم البضّة.

– يا !!... هذا يبين وكح كولش! صدك ماكو بهالدنيا فقير.

تبسَّم سمير بأسنان بيضاء ردت ضاحكة إزاء ابتسامته مالكة المكان بأسنان فَرَّت كعصافير مُسْتَفَزّة منذ وقت مبكر بنغمة أشبه بخرخاشة أطفال... وبخفة السَّحرة ألقمت فمها السيجارة المذكاة وشيَّعته بدخان نفثته رئتاها بقوة مما أحدث تفريغًا هوائيًا بضغط منفعل دفعه مشجعًا لإزاحة قطعة قماش «البازه» على غير هُدى منه واقتحام مدخل باب غرفة بائعة الهوى «سعدية» التي وجدها ممتقعة الوجه، بدت كجثة لا حياة فيها، مسجاة تستجدي الغسل تحضيرًا للدفن، ومستوية على فراش إسفنجي حمل آثار قيء ومني.

وقبل أن يصل عند عتبات جنونها رفعتْ طرف ثوبها ولسان حالها يصرح هادرًا (هيت لك) فبدا أخدود بئرها المترعة يتمثل أمامه كشق طولي تحيطه الحشائش وسط جدار آيل للسقوط، وثمة علبة كلينكس تجاور رأسها تشكو النفاذ لعديد أياد عبثت بها منذ أول صباح يوم الجمعة المبارك.

– خلّص بسرعة.

هاله منظرها وهي تحثه على إنجاز مهمته الأولى في عالم المراهقة ومشاريع التهور وإعلان الخلاص من ليال مديحة معارج الخائبة.

– شُغلي بس يوم الجمعة... افتهم... يعني حرّك طولك بالعجل.

شَغلته رشاقة جسدها وانسجام هضباته عن رائحة الغرفة المشبعة بالسجائر والخمر وعرق الأجساد الوافدة التي يحركها شبق ملوث بالأنين والآه والغربة...

اقترب منها، انحنى باتجاهها، تمايل وهو يغرز خناجر نظراته في تفاصيل عينيها، كانت جميلة كأنها زجاج لوَّثته دموع مرَّت عليه ورقة كلينكس ماسحة آثار ملوحتها قبل قليل... هذه الدموع كانت تروي قصة فناء العالم وخواء خطوات جيل من المهزومين بخسارات كمطر نيسان... هكذا تحدثت أجواء الغرفة فاستشعر سمير حينها حقارة وبؤس ما أتى من أجله... سعال ذات الثديين المتهدلين ينهره بتعجيل إتمام المهمة وفقًا للوائح المعمول بها في هذا النُّزل القابع وسط المجهول حيث اللاحياة، حيث اللاكرامة، حيث السخرية... لثَّم شفتيها مغمض العينين... دفعته بعنف وهي تقرص أذنه كطفل مُعاقَب من قبل أُمه لمُشاكسةٍ أحدثها ساعة حماقة.

– ولك خلص... هي زعطوط... شلعت كَلبي.

عاد اتجاهها مُجدَّدًا وشفتاه ترسم لوحة مسارات شبقة حول رقبتها الغارقة في البياض وهي تتلوى تحته كأفعى تحاول تحريض أُفق رجولته على الاتساع والاستطالة.

– منو انتِ رحمة للأنبياء؟ شجابج هنا؟

وكأنَّه صعقها بكهرباء عالية الفولت فأيقظها من إغفاءة عمر بأكمله، فراحت تمسك بياقته وتهزه بعنف وكأنه سبب كل مآسيها.

– زوجي شهيد كان يدافع عن شرف الوطن... وانتَ منو؟ وليش تأخرت كل هاي السنين؟

– آني؟ جنديٌ ينتظر وما بدلت تبديلا... جندي لم يحن أوان استشهاده بعد، جيت أدافع عن أحلامي... وليش انتِ هنا؟

– قابعة هنا لا لشيء سوى للدفاع عن شرف الحصول على لقمة عيش بعرق جبيني لي ولبناتي الأربع.

استلَّتْ ورقة كلينكس ومسحت قطرات عرق توسطت أنفها ورمتها قريبًا من كومة ورق توزَّع محتواها ما بين مني ومخاط ودموع.

– كان زوجي غيورًا.

– حقه... الوطن يستاهل الغيرة.

– لكنها غيرة في غير محلها.

– ها !!! غيرة اصطناعية يعني؟

– انت جميل.

– آني سمير... وعزَّابي اسمه أمجد.

ذات النهدين المتهدلين تواصل سعالها بسباب وشتائم وتقريع يحثه على إنجاز ما قَدِمَ من أجله...

سحب هو الآخر ورقة كلينكس ومسح بها عرق جبينه ودسَّها في جيبه ذكرى مائزة، واستخرج معها ورقة نقدية بخمسة دنانير من جيبه الآخر يجهل لونها أحمر كان أمْ أزرق، ووضعها جوار رأس سعدية، ونهض ناقمًا لاعنًا سوء واقع وجود الإنسان وانعدام الغزل بينه وبين أحلامه الساذجة، ومنظر البئر المترعة يطالعه فاغرًا فمه بطول فارع واعتذار كبير، فاكتسى بظل ستارة «البازة» وشيء سمير البائس يبحث عن منفذ للهروب، فالعار راح يجلده بسياط الذُّل.

السباب والشتائم لذات النهدين يتواصل بعنف وسط همهمات لزبائن يقاتلون الزمن من أجل حضورهم وسط هذه الغرفة الملوثة بالألم والعويل ورائحة السجائر والعرق والبول لاجترار فعاليات شكَّلت هوية شباب يجهل مستقبله في ظل حرب كشف وجودها عن حماقة صبي أهوج اسمه سمير.

حاول أنْ يحذِّرهم من حقيقة العار الذي سينال منهم إنْ ولجوا تفاصيل غرفة إعدام ذواتهم... إلا أنّ صراخ ذات النهدين المتهدلين أخرس كل حقيقة لديه.

سحب الستارة بقوة وانتزعها من الباب فوجد ذات النهدين المتهدلين قبالة وجهه موزعة النظر بين سعدية التي غطَّت وجهها بيديها وبشعرها المنسدل للأمام تجاورها ورقة نقدية من فئة الخمسة دنانير هربت من جيب سمير، وبين وجهه المتجهم الحانق اللاعن لبيوت هوى خالية من الهوى والحب.

– ماكو شي يحتاج نخفيه بهاي الستارة حجيه... بعد مالها داعي... الفضيحة چبيرة والفتكَ أكبر.

رمى الستارة العفنة بوجهها وخرج متعثر الخطى تاركًا نوني النسوة يتبادلان الشتائم الواطئة.

استنشق هواء المدينة المثقلة بالوجد كان هواءً ملوثًا بالخزي لم تقبله رئتاه فاحتبس في صدره اللاهث، فراح يسعل بشدة وهو يحث خطاه ماشيًا بلا وعي باتجاه نهر دجلة وهو ينحدر متدفقًا بسرعة قطار باتجاه الجنوب برفقة أسماك «الزوري» الناعمة تاركًا المدينة تسبح ببحر من ورق الكلينكس، وثمة لعنات أطلقها دون وعي منه بألفاظ شتى تنال من فكرة صديقه أمجد... ختمها بكلمات واثقة يرى فيها الصواب، بل كل الصواب:

- آسف مديحة معارج... عُدتُ نادِمًا.

جحيم البسطرمة

كانوا يُسمونه «سعيدًا»، لكنّه لم يذُق من هذه السعادة المفترضة شيئًا، ولو للحظةٍ واحدة، حيث كُتب عليه العويل منذ ليلة العثور عليه ملفوفًا بخرقة بالية على ضفاف دجلة حين شتاءٍ ماجن في بواكير سويعاته الأولى من عُمر مُلبَّد بالنكبات بهيئة كومة لحم حمراء استقرت بين الماء والطين.

ومنذ تلك الليلة وسعيدٌ مقطب الجبين، لم يُرَ ضاحكًا البتَّة، حتى أنَّ أسنانه بَدَتْ للناس مصدر سخرية ورهان فيما بينهم، وهاجسهم التنافس في مَنْ له القدرة على كشفها واستجلاء حقيقتها، ومعرفة الطالح والصالح منها في ضحكة إعجازية تقفز من فمه سهوًا.

لكنَّه خيَّب ظنهم فمرَّ الجميع بتجارب عديدة باءت جميعها بالفشل نتيجة لذلك، فخسروا رهانهم على أعتاب حُزنه، فبقيت ابتسامته طلسمًا مجهولاً للجميع، لا يستطيع أحدٌ منهم فكَّ شفرتها وإخراجها من سجنها السرمدي.

كان أول وجوده بين الماء والطين، وجود يحكي حكاية مخلوق خلقته الصُّدفة، متشكِّلاً من حفنة طين حري وماء دهلة، عجنتهما جنية الرحمة تحت نار مكنستها، فكان طفلاً يرتدي خرقة بالية يمتهن الصراخ لُغةً. بَدَّدَ صراخُ سعيدٍ حواجزَ الظلمة فاستدرج مسامع بائعة الهوى «هنية»

المُتخَمة بالأفكار الشيوعية أثناء إحدى ممارساتها الليلية المعتادة في مطارحة الغرام مع أحدهم لقاء مبلغ مالي زهيد يكفيها يومًا، أو بعض يوم، وهي ممارسة أذَّلتها كثيرًا من أجل «قوت لا تموت» كما يقول المثل الشعبي، فضلاً عن حَنَثِ الكثير من زبائنها السوقيين بمنحها رذاذ جيوبهم وتنصلهم عن اتفاقاتهم الهزيلة!

في هذه الليلة الغريبة، علا صراخ سعيد مُشكِّلاً موجات صادمة أقلقت هنية وهي تضطجع تحت زبونها «رويضي الحداد»... وما إن طرق سمعها صراخ الطفل انتفضت كلبوة خامرها شعور الأمومة بخطر يحدق بأشبالها، فدفعت الرجل بعنف بعيدًا عنها وهي تمسح بقلق حبات عرق لؤلؤية ندَّت عن جبينها رغم درجات الحرارة المنخفضة عند جرف النهر وفوق مشحوف سلمان السمَّاك مقر عملها الليلي الذي لازم المياه الضحلة طيلة عقود بعد موت سلمان سكرانًا غارقًا في النهر.

– أسمعُ صُراخَ طفل.

قالت هنية...

ردَّ عليها رويضي بشيء من السخرية وهو يُجرُّ أنفاسه المتثاقلة نتيجة لتموج حركته الشبقة فوقها:

– وما شأنكِ أنتِ؟

لَمْ تأبه برده البارد كبرودة أنفاس هذه الليلة الفريدة... لفَّتْ عباءتها بيدها بحركة لولبية نشطة وهي تتملَّص من بين ساقي رويضي الطويلتين. ترجَّلتْ من المشحوف مُسرِعة لبلوغ

مصدر صراخ الطفل وقد نسيت أن ترفع لباسها الداخلي حتى خصرها، كما نسيت أن تنتعل شحاطتها المتهرئة، حتى أنّ أحد ثدييها قد رفض الاختفاء مثل توأمه داخل ثوبها الرثَّ فراح يطل مراقبًا ما يحدث أمامه وكأنه كاميرا معلَّقة بصدر ممثل تصور محيطه بلقطة بانورامية.

وجدت هنيةُ صنيعةَ الله، شبيه يوسف في جماله، ونظير موسى في دراماتيكية وجوده في أحضان زوجة فرعون ونهر بليد... حانت منها عدة خطوات متعثرة خطَّتها خارج المشحوف، أسقطها شغفها على وجهها لمرتين، مما أجبرها أن تُقبِّل الأرض بكامل شفتيها وتُكحِّل عينيها بمِداد الطين ذي الروح السومرية، وكأنها تمارس طقوس شُكر الرَّب لبلوغ أسماعها ذلك الصراخ السحري لسعيد الشبيه بمزاميرداوود، وهو يصدح لأهل الجنة تكريمًا.

ومن خِلال بقايا ضوء المصباح اليدوي الذي علاه البرغش برفقة حشرات أخرى؛ راح رويضي يتابعها لمعرفة أصل هيجانها بهذا الشكل المفاجئ وهو يلعن كل صُدفة سخيفة شَكَّلت حياته.

غرقت هنية حتى مفرق رأسها في نهر تَأَمَّلَ مليًا وجه الملاك المُقَمَّط بالخرقة البالية... طفلٌ مكتملُ الهيئة، جميل المحيا، وثمة نور بألوان شتى يطل من بين ثنايا وجهه يخبر بنقاء سريرته... توقف صراخه، تكلم في المهد صبيًا:

– أُمي... لا حاجة بك لضياء مصباح رويضي، فأنا هنا بعشرة مصابيح.

لم تألو هنية جهدًا في التفكير:
– مَنْ هذا؟ مَنْ هم أهله؟ وكيف أتى إلى هنا؟ ومَنْ قَدِم به عند متاهاتِ خيباتها؟ وأيّ قلب يحمل؟.

أهملت كل هذه الاسئلة وحزمت أمرها سريعًا بانتشاله من هذا المكان المُوحِش، لَفَّت جسده الغض بعباءتها وأحكمتها حوله، تلك العباءة الملوثة بآثار طينٍ معجونٍ ببصاق رويضي المطعم بتتن محلي.

هرولت بكومة اللحم المسماة سعيدًا باتجاه بيتها، دون أن تلتفت لأخذ أُجرتها من رويضي، أو تستعيد شحاطتها، أو حتى توديعه على أمل اللقاء به في موعد آخر كما هي العادة.

سلوك هنية أثار حفيظة رويضي ليصرخ بها وهو يتابعها بضوء مصباحه الخافت المرتجف كعجوزٍ على أعتاب قبر:
– هنية... أُجرتك؟

عانق نداءه دوائرَ موجاتِ النهرِ المتراقصة بفعل حركة الأسماك الدائبة ليختفي بعيدًا في قاع النهر.

تَماسُّ قَلْبِها مع قلب ملاكها أعطى أمرًا لجميع حواسها أن تغيب عن العالم، ليعلن هاتفها الروحي إشارة للجميع بأن الخط مشغول ولا رجاء لعودته.

واصلت نهبها للأرض بأقدام من عجلات خرافية عجَّلت بوصولها لبيتها سريعًا، مما أحبط تطلعات رويضي في تكملة متعته الكاذبة في أحضان هنية، فما كان منه إلا الاضطجاع على ظهره في المشحوف وممارسة هوايته المفضلة في مضاجعة يده المتضرِّرة من ضربة مطرقة حديدية في لحظة سهو وغفلة

مستذكرًا جسد هنية الذاوي كسعفةِ نخلٍ مصيرها تنورٌ مسجر وهي تتلوى بين فخذيه على أنغام موال لـ«ياس خضر» (حِنْ وانا احِنْ).

وفي قرار صادم لجميع سوقة المدينة اعتزلت هنية مهنة الدعارة دون معنى للتوبة الدينية التي طالما تبجَّح بها «ملا عشم» على مسامعها وأمام مرأى وأسماع الناس، بل وجدت نفسها أمام مسؤولية اعتبارية كبيرة لتربية هذا الطفل الجميل، كما أنها اعتبرت الشرف أمانة وهي ترتبط به، فتصورت مدى الإحراج الذي سيرافقه عندما يكبر وأمه، أو مربيته مشاعة لنزوات الجميع.

كانت هنية كثيرة التطلع بإسهاب بوجه «سعيد»، تطمح أن ينتشلها برقة عن عالمها الموحش كشعرة من طنجرة عجين، تتأمله، ترى فيه شيئًا فقدته منذ زمن: الأهل، الزوج، الأخوة، الأخوات، اللحظات الجميلة، لذلك أسمته سعيدًا لرغبتها بأن تكون حياتها سعيدة على يديه في قابل الأيام ولو بعد خسارات متعددة... لكنه كان يقرأ على الدوام في آبار عينيها حُزنًا كبيرًا يكاد يحرقها، لذلك مكث معها وهو يعتاش في حُزنه على خراب الماضي كمواساة لها، لا نقمة عليها أو رفضًا لسلوكها، لأنه وعى تفاصيل حياتها دون أن تذكرها أمامه، فشعر بمظلوميتها وجفاء الزمن معها.

أصبح سعيد كل حياتها، كانت قسمات وجهه تُحرِّك فيها إحساسًا قديمًا، تبتهج لأجله، يُذَكِّرها بزوجها الذي قتله القومجية بعد أنْ علَّقته إحدى عصاباتهم على أحد الأعمدة الكهربائية يوم ثَبُتَ لديهم تعاطيه للأفكار الشيوعية مع

جُملة من إدمانٍ للعبارات المؤيدة للزعيم، ليأخذ وجود سعيدٍ نوعًا من العلاج النفسي لها لتنسى بعض ماضيها، وكأنها تأخذ استراحة فتعود للبكاء الذي انتشر سريعًا كالفطر في فيافي روحها، كما إنَّها خلقت معاني وملامح في سعيد شبيهة بما تَوَفَّرَ لدى زوجها، لتقتنع قناعة تامة أنَّ سعيد نتاج زوجها الراحل مليون بالمائة.

كانت مسكونة بالخوف والهواجس في أنْ يعود شريط حياتها الماضية وخاصة في جزئية رُخصها أمام شهوات سوقة المدينة الناتجة عن سخافة الوطن بصور جلاديه وهو يلوي عنق روحها استجابة لنزواته، تخاف كل ذلك لو حصل شيء لسعيد، سعيد الذي تخفق روحها عليه حتى من قطرة مطر رطبت خده، أو نسمة هواء داعبت عنقه، أو كُحة خفيفة لازمت صدره، أو حرارة طفيفة صافحت جبينه... ما زالت مقولة زوجها تعزف ألحانًا أسطورية في روحها (أطفالنا لا يعيشون وفقًا لإرادتنا الأبوية) وكلما وردت هذه المقولة على بالها احتضنته طويلاً في عناق طويلٍ أشبه بزمنٍ مفتوح على مصراعيه لا بداية له ينطلق منها، ولا نهاية تعرف حدوده.

كانت هنية معلمة محترمة، قدَّمت الكثير لزوجها في نضاله الشيوعي، وعانت الأمَرَّين لتكون بجانبه بعد أن خذله جميع أهله وأصدقاءه، لكنها دفعت الثمن غاليًا على أعتاب السُّلطة، التي امتصت رحيق شرفها في عملية اغتصاب انتقامية طالتها هي والكثير من نساء رجالات الفكر الشيوعي، لتُرمى إلى الشارع جسدًا بلا روح، جسدًا أدمن النواح، جسدًا أكلته قرصات الأصابع الملوثة، ليتلقفها المجتمع كفريسة سهلة،

فراح ينهش بجموعه المتوحشة كل جميل فيها، ملوِّثًا بقاياها بقُبحه السَّادي، فسارت اضطراريًا دون وعي منها في طريقٍ زُرِعَ بالمفخخات التي وخزت أقدامها حتى نزفت آخر قطرة كرامة في وطن لا يعترف بالمخلصين... لكن اقتحام سعيد لحياتها أسدل الستار وإلى غير رجعة على مسرح ماضٍ رهيب يرمز إلى سيل من الأخطار والأخطاء، مما ولَّد لديها القوة لمقارعة المثل الروسي في مصداقيته: (إن حياتنا ما هي إلا تكرار لأخطائنا). فخيَّمت بروحها المعذَّبة على ربيبها سعيد وأفنت زمنها من أجل زمن هذا الطفل المجهول الهوية والعنوان، فما عادت الأخطاء ترسم طريقًا لوجودها.

كبُر سعيد، وكبرت همومه، واستفحلت لديه عُقد الدنيا كلها نتيجة لوراثة علائقية ورثها بطواعية وحتمية إلهية من أمه هنية المُعذَّبة، وكان أشدها عليه التحاقه بالخدمة العسكرية وسوقه إلى جبهة القتال لشعور بالاستلاب والدونية كان قد طغى عليه بقوة، مما ولَّد قطيعة لديه أطرافها ذاته والواقع المُعَاش، شعور باللاإنتماء فجَّر فيه الكراهية لكل صور الموت من لحظة التحاقه بسيارات الريم في كراج النهضة وحتى وصوله إلى الجبهة، مرورًا بكل صور الضباط والقادة العسكريين وجميع معدات الحرب التي اعتادت على التهام رفاقه واحدًا تلو الآخر، لذا لم يألف هذا الجنون بالمرّة، فواجهه بجنونٍ آخر. كان دائم الحساب لعدد القذائف التي يطلقها العدو وهي تحز رقاب رفاقه، كان يعد ذلك بطريقة رياضية فريدة:)القذيفة مضروبة بعدد الشهداء من رفاقه = عدد الثكالى + عدد الارامل + عدد الأيتام)... فكانت الأعداد

تؤرقه وتجعله يعيش في عالم غير عالمه وكأنه يُزَّف مع جثامين الشهداء إلى مقابرهم، يعيش قصصهم وهم يروونها على بعضهم البعض من أجل قتل الوقت قبل وصول منكر ونكير، لذا كان يموت باليوم ألف مرة حسب نتائج نظريته الرياضية.

أحد الجنود من رفقة سعيد في الجبهة كان اسمه «جمال الأعور» والذي كان نسخة منه لأنه صديق طفولته، كما شاركه بالعيش على الهامش في مراحل عديدة من وجودهم. تشاركا في كل صور البؤس، حتى الاسم هو الآخر لا يعكس حقيقته الداخلية، فعينه التي سقطت أمام بقية رفاقه نتيجة لرصاصة قناص معادي، ولَّدَتْ مناهضة بين شكله المُشوَّه واسمه الجميل، ليكون حاله حال رفيقه سعيد (جميل بس بالاسم).

هذه العين القافزة من موضعها بشكل ضفدع أمام عيني سعيد حرَّكت في داخله رفضًا لواقع زائف يتحلّى بالكذب بادعاءات وطنية ودفاع عن الشرف والمُقدَّسات، فتولّد لديه شعور من رحم الواقع، إذ لم يعد لديه أدنى رابط بهذه الحرب وهو يقول مُردِّدًا وبجنون وسط ساحة العرضات ليلاً أمام رفيقه في نوبة الخفارة في حراسة وحدتهم العسكرية: (مشعلوها يتنعمون بالجنة، والبائسون يتحملون لظى سعيرها... أي خراب حلَّ بساحتنا؟).

من هنا انطلقت المسببات في إعلان الثورة الكبرى بالرفض لكل شيء له صلة بهذا الوجود المتخندق عسكريًا... لذا لم يدخر وقتًا للتفكير في مغادرة هذا الجحيم ليعلن فراره من الجيش مطلقًا، ومن يومها أُطلِق عليه لقب «سعيد الفرار»

رغم هروب نصف الجيش العراقي يومها، لكنهم لم يُنعتوا بهذا الوصف الملازم له حتى الممات.

وفي ليلة مكفهرة من ليالي الصيف كان سعيد وأمه هنية ينامان على السطح البارد كما هي العادة لدى الجميع وخاصة في المحافظات الجنوبية ذات المناطق الشعبية والبيوت القديمة المميزة بطابعها العمراني السوري والتركي المُزوَد بباحة واسعة وسطح كبير، إذ تسوَّرت السطح في هذه الليلة مجموعة من رجال الانضباط العسكري وهي تنطُّ كذئاب غزت حظيرة نعاج، فما كان من سعيد إلا القفز على سطح جيرانهم هاربًا من جمهور الذئاب برشاقة، مما حفَّزهم لإطلاق النار عليه وبرصاصات عدة أتت إحداها في صدر هنية التي وقفت أمامهم كالسد المنيع مدافعة عن ابنها، ونزفت آخر نبضات روحها وهي تعزف ألحان الموت برجاء نجاة سعيد.

- يمه وليدي!!!

•••

مرَّ زمن طويل على تلك الحادثة المأساوية ولكنها مازالت تعيش باجترار نُصب مخيلة سعيد الذي حثَّ السير باتجاه محطة إسالة الماء لتبديل صديق طفولته جمال «الأعور» في خفارة العمل الذي تم تعيينهم فيه بعد سقوط بغداد بيد الأمريكان. لكنه وصل متأخرًا عن موعد استلام نوبته في حراسة محطة الإسالة، مما أجبر جمال على ترك مكانه لشعوره بالملل والضجر من الانتظار الذي خرج عن حده، لكنهما تلاقيا وجهًا لوجه في مكان قريب من المحطة، تبادلا

التحية بفتورٍ معتاد...

– ليش تأخرت؟

– أصعب سؤال، بس روتيني.

– عندك جواب؟

– لا.

هزَّ جمال يده صافعًا الهواء دليل عدم رضاه...

– كلمة ضعها ترجية بأذنك، كُنْ على حذر، فليلة البارحة لم تعرف عيناي طريقًا للنوم.

أدار جمال ظهره تاركًا المكان وهو يتمتم بكلمات مبهمة دون أن ينتظر من سعيد ردة فعل لقنبلته المشفرة والتي رماها وذهب بطريقة «الدغ واهرب».

ودّعه سعيد حتى اختفاء هيكله منحدرًا أسفل الجسر المجاور لمحطة الإسالة... راودته ضحكة، أو ابتسامة على أقل تقدير، لكنه آثر أن لا يحقق طموح السماء برؤيته مبتسمًا ولو لمرة واحدة، فهو في حداد روحي منذ الأزل.

انتبه ليده وهي ما زالت ممسكة بكيس متاعه، حَكَّ قفاه مستغربًا، فقد مضى وقت ليس بالقصير على قدومه للمحطة وهو بهذه الهيئة. انتفض رأسه يمينًا يسارًا بحركة ارتجاجية لاستعادة تركيزه، ثم عمد إلى متاعه ليركنه جانبًا في إحدى زوايا غرفته الصغيرة والتي هي عبارة عن كرفان صغير مجهز بحمام ومطبخ وغرفة نوم صغيرة.

اتجه بعدها إلى خزان المياه فوجده شبه فارغ، فلعن الأعور في سِره، وضغط بسبابته المصبوغة باللون البنفسجي زِرَّ

التشغيلِ لمحركاتِ سحبِ المياه من النهر، ثم رمى في الخزان كيسًا من مادة الكلور وراح يفتح ويُغلق صمامات بمختلف الأماكن... تأمَّل قليلاً إصبعه البنفسجي، قضمه بقوة آسفًا، ولعن جميع الحكومات منذ الدولتين الأموية والعباسية.

كان يشعر بالجوع، فعمل لنفسه بيضًا مقليًا وشرب شايًّا مُرًّا، لإصابته بمرض السُّكر مبكرًا بعد مقتل هنية، فتعايش مع السُّكر ليقينه أن ملازمته للعراقي بهذا الشكل المضطرد دليل همٍّ أصبح هوية وعنوانًا للإنسان المُستلَب.

أنهى أعماله التشغيلية في المحطة مُبكرًا وبسرعة غير مألوفة، وكأن وراءه عمل أكبر وأهم، شعرَ بالتعب لأنه هو الآخر لم ينم ليلته الماضية كما يجب، فراودته سِنَة من نوم أجبرته أنْ يضطجع لها، فنام حتى جنَّ الليل عليه.

استيقظ وغسل وجهه، ووقف فوق منصة الإسالة المؤدية إلى أنبوب الماء الذي يسحب المياه من النهر لتصفيتها ونقلها إلى الأهالي عن طريق أنابيب أخرى تم تجديدها في الأيام الأخيرة. تأمل أضواء المدينة التي انعكست بجمالية خاصة على صفحة النهر...

- (للجمال وقت معين يظهر ويختفي بلا مواصلة، فانتهزوا الفرصة لاستشعاره).

رنَّت عبارة هنية في مخيلته والتي تعلَّمتها من زوجهِا، وهي عبارة لازمته منذ صباه:

- (كم هي جميلة مدينتي لأنها تحمل جمال أُمي)...

قال سعيد عبارته تلك فداهمه قطعٌ للعرض البصري

بعرض آخر لسينما عينيه وذاكرته بشريط مصور يظهره بعد هروبه من الانضباط العسكري وسماعه لعيارات نارية تابعتها أذناه بجنون. ليلتها مكث في تنورِ جارٍ لهم ليس ببعيد، ولما كفَّت جلبة الانضباط ورصاصاتهم عن العبث في جَرْحِ صمتِ الليل انسحب راجعًا لسطح دارهم كقط خائف من جيش سنوريات مفترسة.

طفى فوق تخوم رؤاه ظل امرأة لا يستدلها.. هل هي الجنية، أم الحبيبة إيمان، أم الفنانة سعاد حسني، أم ظل أُمه؟... نعم إنها أُمه، وجدها جسدًا داخل لوحة الموناليزا بابتسامتها الحزينة، وجدها غارقة في بركة دم اصطبغت بلون غير معتاد، لون أزهر يضج بالعطر الجميل، لكنه يفور كإبريق شاي نسيه صاحبه لحظة غفلة. وما إن وصل عند أعتاب قلبها حتى تحرَّكت وأنَّتْ، وسمعها تقول وهي تحتضنه بقوة: (افيش يا بعد روحي).

رَطَّب جسدها بدموعه وعمد إلى عباءتها التي غطَّته بها حين عثرت عليه على شاطئ دجلة، فحان الآن دوره ليغطيها بها وكأنه دَيّن وجب سداده.

ضياء مصباح مرتبك أنهى تسلسل شريطه السينمائي الثاني، فقد لاح له من بعيد مشحوف للأهالي يقترب رويدًا رويدًا من المحطة، حيث كان سعيد دائم الحذر من اقتراب المشاحيف من المحطة لأنها تسبَّبت في إحدى المرات بكارثة يوم ارتطمت مقدمة المشحوف بالأنبوب الساحب للماء فانكسر، مما أدَّى إلى انقطاع الماء عن الأهالي ليومين، لذا كان يتلقى توصيات كثيرة من مسؤوليه بالاهتمام بهذا الأمر

ومراقبة النهر وإلا كانت نهايته...

راح سعيد يصرخ بحنجرة ممتلئةٍ بالدم مُحذِّرًا القادم من الوصول قرب الإسالة، إلا إنَّ الآخر لم يبالي بصرخاته فواصل اقترابه منزلقًا بهدوء على صفحة الماء حتى وصل ملتصقًا بقواعد ارتكاز الأنبوب.

- شعندك هنا؟ ما تدري ممنوع؟

- جيت أسلم عليك.

سلَّط سعيد ضوء المصباح اليدوي على وجه صاحب المشحوف فتبين أنه عليوي ابن سلمان صاحب المشحوف القديم الذي كانت هنية تمارس فيه جنونها المهزوم.

- توكل... كَبل لا اسويلي چاينة.

انسحب عليوي بهدوء حتى اختفى عن أنظار سعيد عند ظلال النخيل المتهدل فوق مياه النهر كشعر أنثى في عامها الرابع عشر.

انسدلت ظلمة الليل كشعر مجنونة جانبها الرقاد، وانطلت هواجس سعيد تُقْلِقُ راحته متفجرة بأسئلة عديدة وهو يتذكر كلمات جمال كطرقات حداد على صفيحة حديد: (كلمة خليها ترجية بأذنك، كن على حذر، فليلة البارحة لم تعرف عيناي طريقًا للنوم).

انطلق مونولوج داخلي في ذات سعيد يحاور هسيس الحشرات، وتكسر أمواج النهر على منصة الإسالة، وهمسات الريح الخفيفة التي رفعت من وتيرة قلقه، حينها تذكَّر صديق له كان يعمل حارسًا لإحدى المدارس الابتدائية والذي كان دائم

الحديث عن وجود جنية في المدرسة تأتي ليلاً وتعمل فتقًا في ملابس الحارس من مكان عضوه التناسلي وتضاجعه، وتخرج مترنحة بعد أن تبصق بوجهه لثلاث مرات.

كان هذا الحارس يردِّد قصة الجنية أينما جلس: في المقهى، في بيتهم، وهو يمشي في الشارع، وهو يواجه مدير المدرسة عند خروجه وانتهاء عمله في الحراسة، أينما وجدته فحكاية الجنية حديثه الوحيد... حتى جُنَّ بشكل رسمي وانتهى به المطاف في مقبرة جماعية بعد تمشيط المدن الجنوبية من قِبل النظام عقب أحداث الانتفاضة الشعبانية، وبما إنَّ لقوات النظام العسكرية القادمة من بغداد اعتقاد كبير بأن جميع سُكان المدن الجنوبية يتواجدون عند موضع الزائد في الاتهام بمناهضة الحكومة، لذا تعاملت معه على أنَّه أحد الغوغاء الكبار، وتمثيله المتقن لدور المجنون هو لاستغفال العسكر، فكانت نهايته مع المئات نزيلاً دائمًا لمقبرة جماعية لا يمثل اجتماعها إلا هوية جماعية للمسحوقين، للبسطاء، للأبرياء.

رنَّ هاتف سعيد الخلوي الذي اشتراه قبل أيام بعد محاولات كبيرة من الجميع لإقناعه بأهميته في تمشية أمور حياته. الرقم غريب لم يُحفظ في خزانة الاسماء...

– من يا ترى؟

– سعيد، آني إيمان.

طَرَدَتْ صورةُ حبيبته إيمان بعض تخرصات هواجسه حينما سمع صوتها الذي كان يسحره منذ صباه... كان يروي لأُمه تفاصيل حُبه لإيمان، فكانت تُخبره بعبارة هادئة: (يمه أمَّيْنَه مو إلك).

– هلو حبيبتي.

– يا حبيبتك! ولك أهلي راح يكتلوني.

– شلون؟ وليش؟ ومنين تخابرين؟

– من تلفون أخوي محمد... الوحيد اللي باخوتي واكَف وياي... ضربوني وشكّو راسي.

تجهش إيمان ببكاء حار، مما حفَّز سعيد أن يصرخ بها تاركًا موجات صراخه تسبح في فضاء محطة الإسالة...

– باچر أنهزم بيج لأبعد مكان بالعراق.

علا صوت صراخ إيمان مصحوبًا بضربات أحد أخوتها وهي ترجوه أن يكف عن ذلك لينقطع بعدها الاتصال... يعاود سعيد الاتصال بالرقم الغريب، يأتي الرد بأنَّ الجهاز مُقفل.

راوده شعور بأنهم اكتشفوا حديثها معه وسينالون منها، لأنَّه يعرفهم أصحاب سوابق في القتل والإجرام، وكثيرًا ما تسبَّبوا بعاهات للآخرين.

كرَّر كلمة أُمه هنية في دماغه عدة مرات ليربطها بجهار لتضخيم الصوت (يمه أمّيْنة موإلك).

تصاعدُ الموقف بهذا الشكل الدرامي جعلَ سعيد يفكِّر بمن ينقذه مما هو فيه... وهنا لاحت صورة جمال الأعور أمام عينيه لعلَّ لديه حل لما هو فيه... التقط الجهاز الخلوي واتصل به... تأخّرَ الرد حتى يأس سعيد وحاول غلق المكالمة، لكن جمال استجاب أخيرًا وهو يتثاءب:

– شكو؟

– لك جمال، إيمان راح يكتلوها.

- ليش؟
- أهلها عرفوا بقصة حُبنا.
- ها... وشراح اتسوي؟
- أعوف المحطة وانهزم بإيمان.
- لك شبيك...تريد تهجم بيتنا؟... إيمان تنكتل إي مو مشكلة، بس المحطة ما تعوفها.
- طوط طوط طوط.

انقطع الاتصال، يبدو أن جمال غير مُصدِّق بما قاله سعيد معتقدًا أن اتصاله كان فقط لقتل الوقت، لذلك أقفل جهازه للتخلص من إلحاح سعيد، فهو يحفظ كل طِباعه حينما يريد حلاً لمشكلة ما بطريقة لا تعالج المشكلة نفسها بل بخلق مشاكل أخرى وخاصة في مثل تلك الحالة... كيف لا وهو صديقه منذ الصغر وقد حفظه عن ظهر قلب.

سعيد يتلوى كسمكة مسمومة وقد عجز عن إيجاد منفذٍ تطل روحُه منه للخلاص مما هو فيه، وراح يرسم في خياله تفاصيل عملية قتل إيمان من قِبَل إخوتها... وفي محاولة منه للخلاص من هذه الصور المرعبة اختفى داخل غرفته الصغيرة منسحبًا كوحش أسطوري في أعماق بحر. ذكّى سيجارة وراح يتأمل الماضي بعيون شبقة من خلال موجات دخانها... ما زال طعم القُبلة التي طبعها على خد إيمان في صغرهما تتأجج في قلبه، لكن اتصالها الهاتفي جعله ينام على كومة مسامير، كيف السبيل لإنقاذ إيمان؟؟... أسئلة عديدة أكلت منسأته حتى سقط على أُم آلامه... ولمَّا أعياه التفكير السلبي بالنتائج

تهشمت روحه المعذبة فجعلته يعيش دوامة أطبقت على جفنيه أخيرًا وكأنَّه قد استنشق غازًا مخدرًا ليغيب في نومة تمثلت بإعجاز قاهر.

استيقظ سعيد فزعًا إثر صوت ارتطام قوي بالمنصة المائية للمحطة معتقدًا أن القيامة قد حانت. خرج مستطلعًا الأمر، اقترب بحذر من أسفل المنصة وأمعن النظر ليصرخ فزعًا مولولاً: (يا مصيبة المصيبة... جثة مرة غركَانة مچلبة بالمحطة... يابويه).

تعثَّرت قدماه وهو ينسحب قلقًا إلى غرفته، نهض متوجعًا، فتح باب الغرفة، وأقفله بظهره، واتكأ عليه، مغمضًا عينيه... غاب خَياله في دهاليز إيحاءات غريبة... (جثةُ امرأة بعباءة سوداء أغلقت منفذ الأنبوب الساحب)... (مسؤول المحطة سيطردني لا محالة).

سعيد يقترب من الجنون رويدًا رويدًا وهو يحلِّل ما وجده ملتصقًا بالمنصة... (منْ تراها تكون؟... ممكن أن تكون «حمدية» التي تعشق غسل أواني الطبخ والملابس على الشاطئ رغم توفر المياه الواصلة لبيتها؟ ربما «سليمة» التي إعتقد الناس أنها هربت من أهلها قبل سنين بصحبة عشيقها الضابط الموصلّي؟ أو ربما فتاة صغيرة بصحبة زميلاتها في المدرسة القريبة من النهر، كانت عطشى فنزلت للنهر لكي تشرب وزلت قدمها فغرقت وتركنها زميلاتها تواجه مصيرها لوحدها؟... منْ تراها تكون؟).

تخيَّل سعيدٌ تواجد كل نساء مدينته غرقى عند منصة سحب الماء إلا إيمان نفى عنها التواجد ميتة ملفوفة بعباءتها.

قطع تردده وعاد وكرَّر مطالعة الجثة من جديد، سلَّط عليها ضوء مصباحه مرتجفًا وهو ينظر بإغماضة عين وفتح أخرى، ليصرخ من جديد وهو يقتلع خصلات من شعره قائلاً: (هي... هي... إيمان... خنكَوها وشمروها بالشط... آاااخ ولج إيمان تموتين وتخليني لوحدي... أمَّيْنَة... أمونة).

بعد اللطم والعويل وسيل من الدموع اتزن قليلاً وعاوده التفكيربوعي في حل مناسب لمصيبته... ماذا يفعل؟ هل يتصل بالمسؤول ويبلغه؟ لكنه سيكتشف خوفه وتراجع قدراته التي من أجلها تم إيجاد وظيفة له في هذه المحطة وسيتم فصله لا محالة... هل يتصل بجمال؟ سيسخر منه كالعادة؟ وربما لا زال جهازه مقفلاً للآن. لكنه حزم أمره أخيرًا واتصل بالشرطة، وبعد بعض الاتصالات بين المسؤولين والشرطة أتت قوة للمكان لمعاينة الحادث.

استقبلهم سعيد خائفًا يرتجف، لاحظ أحد عُرفاء الشرطة مبالغة سعيد بخوفه فأراد المزاح معه:

- طبعًا راح تكون أنت المتهم الأول، واحتمال الإعدام مصيرك.

تقدَّمت القوة بصحبة ضابط برتبة عقيد شرطة باتجاه المنصة وكأنهم فصيل أُسوُدٍ يروم افتراس غزال بري. وكلما اقتربوا من موضع الجثة يزداد ارتباك سعيد. وما إن شاهد أحد العُرفاء يمسك عصا لتحريك الجثة لمعاينتها ورفعها

قابل سعيد ذلك بإطلاق ساقيه للريح هاربًا من الجميع لا يلوي على شيء المهم الهروب والهروب فقط.

وقبل أن يصل إلى بيته الغافي على شاطئ دجلة، صادف رجلين كبيرين يجلسان أمام أحد البيوت وهما يشربان الشاي ويتحدثان بطريقة بوليسية مفتعلة...

– ما العمل أمام هكذا جرائم؟

– للتخلص من كل تبعات الجرائم، يجب أن تتخلص من هاتفك النقال أولاً وترميه في النهر، وألا تنسى أوراقك الرسمية خُذها معك.

انطلقا بضحكة هستيرية أرعبت سعيد، مما دعاه أن يتحسَّس هاتفه الخلوي في جيب بنطاله وهو يتمتم في سِرّه: (ما حكاية الأنهار معي؟)، فذهب باتجاه النهر للتخلُص من هاتفه وهو يودِّع أنهار المدينة جميعًا وداعًا موحدًا.

عاد لبيته وأخذ حفنة من نقود من طيات فراشه كان قد احتفظ بها للنفقة على زواجه من إيمان، ثم التقط أوراقه الرسمية بما فيها جواز سفره الذي استخرجه قبل فترة وجيزة تزامنًا مع جمال الأعور الذي استخرج هو الآخر جوازًا وذلك لنيتهما السفر إلى إيران لزيارة الإمام الرضا بعد أنْ أصبحت تلك الممارسة موديلاً لجميع العراقيين والتنافس فيمن يكون له السبق في الزيارة والتفاخر بذلك في تجمعاتهم الشعبية والرسمية وفيمن سيطلق عليه أولاً كلمة «زاير».

انطلقت سيارة الأوباما باتجاه بغداد تنهب الأرض بسرعة صاروخ، وهي تُقلّ سعيدًا بصحبة مجموعة من الشباب

الذين يبدو عليهم ومن خلال حديثهم أنهم ذاهبون للهجرة إلى تركيا لإيجاد منفذ للحياة في هذه الدولة العصرية، وهربًا من جحيم وطنهم الآخذ شكل البسطرمة وطريقة تحضيرها وتفسُّخ مكوناتها... وبعد حديث طويل بين السائق والشباب انطلقت عبارة من سعيد غيَّرت أجواء السيارة ليكون الحديث أكثرَ جدية..

- أكَدر آجي وياكم؟

في الجانب الآخر من المدينة واصل جمال الأعور اتصاله المهووس بسعيد دون جدوى، لا صوت يجيبه غير قصيدة طويلة للنهر وهو يتغزَّل بأسماكه... كان يريد إخباره بأن الجثة المزعومة كانت لجاموسة سوداء نافقة اشتبكت بها عباءة امرأة تخلصت منها لانعدام لونها إلى أخضر باهت فزهدت بها، فجرفتها المياه عند محطة الإسالة فعلقت بأنبوب السحب. كما أراد جمال أن يخبره بأن إيمان كانت تُمثِّل عليه دور الضحية لدفعه بتعجيل طلب يدها من أخوتها.

كُتِبَ على سعيد أن يكون هاربًا، فارًّا، طيلة استنشاقه لهواء العراق، لذلك حتى لو علم بحقيقة ما جرى فسيكون على الموعد مع تفاصيل هروب آخر.

حَشَرَ سعيدٌ جسده متكورًا في زورق مطاطي صغير بين كُتل أجسام المهاجرين من سوريا والعراق وهم يحملون بطاقات سفر لعبور خط العتمة نحو مرابع الحياة الماكثة عند الجانب الآخر في اليونان: رجال، ونساء، وأطفال بمختلف الأعمار جمعتهم الصدفة والرغبة في الخلاص من وحش أسطوري التهم أرواحهم بعنف، وحشٌ اسمه الواقع العربي...

زورق نزق يمخر عباب البحر بسائق متهور مخمور يضحك ساخرًا من جموع الفئران المتكدسة فوق بعضها وهي ترتجف من شدة البرد وهول الفجيعة... الجميع مُغيَّب روحيًا مُشتَّت ما بين اليأس والرجاء، ينظرون في اللاشيء، إلا سعيد، فقد انفصل عنهم مُحدِّقًا في امتداد البحر وهو يذوب في عتمة الليل، حينها ولأول مرة شُوهد سعيدٌ مبتسمًا وقد تيقن الآن من عبثية هذه الحياة التي لم تغازل أحلامه مرة واحدة.

وفي غمرة غياب سعيد في تلافيف عتمة البحر التي لم يسعفها ضياء مصباح الزورق الخافت خوفًا من متابعة خفر السواحل ومكافحة عمليات التهريب، تحدَّث سعيد بصوت مخنوق أثار فزع الجميع:

– ما حكاية الأنهار معي؟ أجيبوني... هل أنا سمكة من غير ذيل؟ فَحَتَّم القدر تواجدي بين الماء والطين؟ أجيبوني... بربكم؟ عليكم العباس جاوبوني؟ شبيكم ساكتين؟... والآن... أتساءل من جديد وبطريقة أخرى: ما حكاية البحار معي؟!).

هاج البحر مُكشِّرًا عن أنيابه وهو يصرخ بالمهاجرين: (ما الذي أتى بكم إلى مملكتي؟ ألم يخبركم هذا المخمور عقوبة الجرأة على أن تطأ أرواحكم رقص أمواجي).

هياج البحر دفع بالسائق للغناء باستهتار أرعب الجميع جعلهم يعيشون أشد أفلام الجريمة رُعبًا، لكنها بدت عادية جدًا لسعيد الذي استسلم كالمُخدّر. الزورق يرقص مرحًا وهو ينزلق على أمواج البحر معتقدًا أنَّ صراخ المهاجرين نابع من مظاهر الفرح بليلة زفافه التي شاركت بإحياء حفلها أصوات غنائية لأسماك اختلفت طريقة غنائها ما بين الصخب

والرومانسية، حتى إنَّ سمك القرش شوهد يتابع الحفل من بعيد بابتسامة متلذذة. أحدُ الأطفال كان يخفي رأسه في حجر أمه، أطلَّ متطلعًا لهول ما سمع من استغاثات (يا علي لولاك يونس ما نجا) لرُكَّاب باحثين عن أمل فصفعهم ألم موحد اختزل كل سنين آلامهم...

– يُمه وين إحنا رايحين؟

اهتز القارب مُحلِّقًا فوق موجة رعناء، فردَّت الأم على وليدها بصرخة استغاثة تصدَّع لها قلب السماء:

– أبو خيمة الزركَة.

الزورقُ عَرِيسٌ راقص، السائق قواد مجنون، الدنيا عاهر رخيصة، المهاجرون نقاط شبحية مسكنها الجحيم أتت تبحث عن موطئ قدم في جنة وهمية، البحرُ خائنٌ عميل، سمك القرش إمبريالي نذل، سعيدٌ أغنية سبعينية من كلمات كتاب مُقدَّس، وألحان موجوع، وغناء مُتعَب، وجدت هذه الأغنية في مياه البحر مسرحًا كبيرًا لإداء ختام مسرحية عبثية، بطلها ذاته المعذبة ليسدل الستار عنها بافتراشه ساحل بحر إيجه وقد اجتمع حوله سرب من طيور السنونو في حلقات مستديرة كناعور «يغرف، ويبدي» منها ما خمشت وجوهًا، ومنها ما لطمت خدودًا، معلنة أمام كائنات البحر صراحة مصير الإنسان في عالم داعر لا يفقه حديث الأنين.

ومن بعيد كان لسرب آخر من طيور السنونو دورًا في هذه المسرحية العبثية وهن يحملن عباءة سوداء قد غادرت لونها الأسود إلى الاخضر الباهت، ثم أطلقنها في الفضاء المشبع

برائحة الحناء والمسك لتطير بحُرية حيث استقرت على جسد النبيل سعيد الذي كفَّ عن الهروب ففقد لقبه «سعيد الفرار»، لكنه راح يتطلع فرحًا من خلال شفافية العباءة، ودون جميع جمهور المسرحية، كان لوحده يشاهد فوق رأسه شبحًا يحوم لامرأة طاعنة في الوجع وهي تنعى بردح جنوبي كل موسى غريب قد صافح الموج جسده.

•••

المؤلف في سطور

- أديب وفنان عراقي من مواليد العمارة / الماجدية، عام ١٩٦٨.
- بكالوريوس أكاديمية الفنون الجميلة – قسم الإخراج المسرحي.
- بكالوريوس هندسة حاسبات.
- مارس التمثيل والإخراج، والنقد المسرحي والتلفيزيوني.
- كتب نصوصًا للمسرح، وسيناريوهات لأفلام قصيرة، وقصائد نثرية، وقصصًا قصيرة.
- نُشرت قصصه وقصائده في العديد من الصحف والمجلات العربية.
- عضو عامل بنقابة الفنانين العراقيين منذ عام ١٩٨٨.
- عضو اتحاد المسرحيين العراقيين.
- عضو اتحاد الأدباء العرب للقصة القصيرة.
- عضو اتحاد الكُتَّاب والأدباء في العراق.

- الإصدارات:

– آيبولا: مجموعة قصصية. دار الحضارة العربية للنشر والتوزيع.
– كاتم الصمت: نصوص مسرحية. دار الرياض للنشر والتوزيع.
– النهام: نصوص مسرحية. دار الرياض للنشر والتوزيع.
– الرَّب طفل يتيم: قصائد نثرية. دار المتوسط للنشر والتوزيع.
– رقصات بلون الهور: قصائد نثرية. دار ينبع للنشر والتوزيع.
– الطيران على جناح ذبابة: مجموعة قصصية. مؤسسة شمس للنشر والإعلام، القاهرة، ٢٠٢٤.

- البريد الإلكتروني: kazemzaid@gmail.com

شمس للنشر والإعلام

ت فاكس: ٠١٢٨٨٨٩٠٠٦٥ (٠٢)

www.shams-group.net